جامعة جرش

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

ثنائية الأرض والإنسان في روايات عبد الرحمن منيف

Bilateral Relation Of Land and Man

In Abed Al-Rahman Munif's Novels

إعداد الطالب

عامر علي سالم بني أحمد

إشراف

د. أروى محمد أحمد ربيع

اللغة العربية وآدابها

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

جامعة جرش

٢٩ ، آب ، ٢٠١٧

جامعة جرش

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

ثنائية الأرض والإنسان في روايات عبد الرحمن منيف

Bilateral Relation Of Land and Man In Abed Al-Rahman Munif's Novels

إعداد الطالب

عامر علي سالم بني أحمد

إشراف

د. أروى محمد أحمد ربيع

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

جامعة جرش

٢٩ ، آب ، ٢٠١٧

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة (ثنائية الأرض والإنسان في روايات عبد الرحمن منيف)

وأجيزت بتاريخ : ٢٠١٧/٨/٢٩م.

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
د. أروى محمد أحمد ربيع (مشرفة ورئيسة)	....
أ. د. محمد قضاة (عضوا)	....
د. زياد بني عمر (عضوا)	....

الفهرس المحتويات

من أقوال عبد الرحمن منيف

على الإنسان أن يتعوّد :

يجب أن يتعوّد على كل شيء.

البرد، الوحدة، الضّجر، وتراءت لي كلمة هزيمة كدت

أقولها، لكن غصّة أقرب إلى يد ثقيلة حزت رقبتي.

سأبتسم، الإنسان يستطيع أن يبتسم!

والابتسامة إرادة حتى لو كانت حزينة.

شرق المتوسط

كيف يمكن للأشخاص والأماكن أن يتغيروا إلى الدّرجة التي يفقدون صلتهم بما كانوا عليه، وهل يستطيع الإنسان أن يتكيّف مع الأشياء الجديدة والأماكن الجديدة دون أن يفقد جزءا من ذاته؟

التّيه

الإهداء

إلى كل من غرس فسيلة في دروب العلم، إلى كل من خطا معي دروب هذه الدراسة، إلى من استطاعوا أن يزرعوا بمعاول الصبر والكفاح شجرة وارفة الظلال أتفيأُ ظلَّها على الدوام رغم تغيرات الزمن والدي ووالدتي حفظهم الله تعالى، إلى زوجتي رفيقة دربي، إلى أبنائي، إلى إخوتي وأصدقائي الذين غمروني بلطفهم

وكرمهم كي يرتقي هذا العمل للمستوى المطلوب، فكانت كلماتهم شمعة ضوء، وشعاع أمل يدفع إلى فضاءات أوسع من الطموح والتقدم.

أهدي لكم جميعا هذا الجهد المتواضع.

الطالب :

عامر بني أحمد

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ... وبعد، فإنَّه لا يسعني في هذا المقام، إلا أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان لمشرفتي د. أروى محمد أحمد ربيع التي غمرتني بجميل معروفها، وأثارت لي فكرة الدراسة وأسدت لي النصيحة الخالصة في جميع مراحل الدراسة، وكانت الموجه والمرشد فتركت بذلك أثرًا عميقا في نفسي، وذاكرة لا تنسى في مستقبلي. كما لا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لأعضاء لجنة المناقشة الأكارم، ممثلة بالأستاذ الدكتور محمد القضاة، من الجامعة الأردنية، والدكتور زياد بني عمر، من جامعة جرش، ومشرفتي الدكتورة أروى ربيع، من جامعة جرش الذين تفضلوا ووافقوا على مناقشتي، آملا أن ينال هذا الجهد الرضى والقبول لديهم.

كما أشكر جميع أساتذتي الذين كان لهم فضل إرشادي وتوجيهي ليصل عملي إلى ما وصل إليه، وأخص بالذكر أ. د. محمد أحمد ربيع الأب الحاني، وينبوع العلم لطلبة اللغة العربية في جامعة جرش. فلهم جميعًا الشكر والتقدير.

ملخص الدراسة

عبد الرحمن منيف (١٩٣٣ – ٢٠٠٤) روائي عربي معروف بأعماله التنويرية، التي تواجه الواقع العربي المؤلم، فهو الذي وصف نفسه بالثائر الروائي، بمعنى أنّه ثائر على الأوضاع الاجتماعية والسياسية وغيرها، اتخذ من العمل الروائي وسيلة للتعبير عن هذه الثورة.

لذا؛ وجدت أنّه من المفيد أن أبحث في ثنائية الأرض والإنسان عند عبد الرحمن منيف، فالأرض أو المكان الذي أراد عبد الرحمن منيف أن يقدّمه لنا من خلال رؤية خاصة مظهرا قيمته، ومظهرا تشكله بفعل الاستغلال من خلال علاقاته بالإنسان الذي قد يكون عامل هدم أو بناء فيه.

فالثنائية هنا (الأرض والإنسان) ثنائية مرتبطة ببعضها ارتباطا وثيقا، لذا كانت شخصيات عبد الرحمن منيف تلعب دورا مهما في التغيير، كما تشكّل عنصرا مهما من عناصر بناء العمل الروائي لديه، فالمكان يتشكّل بتشكّل الشّخصية، وأعمال عبد الرحمن منيف تبدأ بالمكان وتنتهي به.

ولإبراز ذلك جاءت الرسالة في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة على النحو الآتي :

تناول التمهيد تعريفا بالروائي عبد الرحمن منيف، حياته وانجازاته الروائية، وعرضا لبعض الدراسات التي تناولت أعماله. كما تناول التمهيد تقديمًا للموروث الثقافي، والديني، والسياسي، والاجتماعي وبيان أثر ذلك في تشكّل أدب عبد الرّحمن منيف.

أما الفصل الأول، فجاء متتبعا لموضوع الأرض والهوية وعلاقتها بالإنسان ماضيا وحاضرا ومستقبلا، وبيان أثر الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فيه، كما تناولت قضية الأنا عند

عبد الرحمن منيف والتي يعكس من خلالها رؤيته للأرض وانصب اهتمام الفصل الثاني في التركيز على موضوع الأرض والسلطة وبيان السلطة أو أثر هذا الصراع على الأرض.

وعنى الفصل الثالث، بدراسة البناء الفني لأعمال عبد الرحمن منيف من خلال الحديث عن السّرد والشّخصيات والوصف والحوار واللغة التي شكّلت بمجملها بنية الرواية من خلال نسيج محكم متكامل البناء.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

الأدب بأشكاله وأنواعه الوسيلة التي تعبر عمّا يجول في النّفس الإنسانية من مشاعر وعواطف وأفكار تجاه المجتمع.

وتسعى هذه الدراسة إلى تحليل ثنائية الأرض والإنسان في أعمال عبد الرحمن منيف لإظهار دورها في تشكيل العمل الروائي من خلال الوقوف على الأبعاد الرمزية للأرض وأثرها في تكوّن الشخصيات (الأرض والهوية) والجوانب الثابتة والمتغيرة المرتبط بها.

إضافة إلى توضيح مواقفها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ماضيا وحاضرا ومستقبلا، وتلفت الدراسة إلى قضيت الأنا في روايات عبد الرحمن منيف، كما تهدف إلى بيان عناصر الدراسة الفنية وبنائها بناء جماليا.

تعود أهمية الأرض في روايات عبد الرحمن منيف لدورها الرئيسي في عرض نظرته وأفكاره الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومظاهر تطور هذه النظرة وتغيرها على امتداد حياته.

إن المتتبع لثنائية الأرض والإنسان في روايات عبد الرحمن منيف يقف على التطور الشامل الذي مر به بنوعيه الفكري والفني، مما يشير إلى العلاقة الوثيقة بين الشكل والمضمون في العمل الأدبي.

ومما نسعى إليه في هذه الدراسة، ربط العلاقة بين الأرض والإنسان، وهل الإنسان ابن بيئته؟ أم الإنسان هو الذي يصنع الأرض؟ وما مدى أثر السلطة في تغيير مسار الأرض والشخصيات؟ وما مدى تأثير الدراسة الفنيّة في إبراز مبادئ وأفكار عبد الرحمن منيف؟

وفيما يخصّ النماذج المختارة للدراسة من روايات عبد الرحمن منيف مرده إلى أهمية ثنائية الأرض والإنسان وثرائها في هذه الروايات، فلم تأتي هذه الثنائية في هذه النماذج بصورة نمطية ثابتة تتكرر في أعماله، بل اتسع مجالها لتشمل السلطة السياسية والاجتماعية، وكان لكل منها صفاتها الخاصة ورؤيتها المختلفة، وقد اتخذها عبد الرحمن منيف لإظهار موقفه السياسي في مراحله المختلفة.

وقد تناولت بعض الدراسات السابقة المكان في روايات عبد الرحمن منيف، ولعل من أبرز هذه الدراسات (البنية السردية والتوظيف التاريخي في رواية أرض السواد لعبد الرحمن منيف) دراسة عامة، لأحمد علي بن حمود، وقد ركزت هذه الدراسة على البحث في البنية السردية في هذه الرواية وعلى الراوي ودوره في تحديد المسارات الروائية والاتجاهات الحكائية في إدارة الأحداث وتوزيعها في جميع فصول الرواية. (١)

أما الدراسة الثانية، فهي لصخر علي المحيسن بعنوان (البنية الدلالية والسردية في رواية أرض السواد) والتي تهدف إلى تعريف برواية أرض السواد من خلال زاويتي الرؤية والتشكيل وقد حاول الباحث في هذه الدراسة الإفادة من علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي إضافة إلى المنهج التاريخي البنيوي، ولا تغفل الدراسة أهمية المكان والزمان والرؤية السردية. (٢)

وجاءت دراسة بعنوان (المكان في رواية مدن الملح) لعبد الرحمن منيف إعداد الطالبة غدير طه عثمان الخروبي التي تهدف إلى إبراز أهمية المكان في رواية مدن الملح حيث أولاه الكاتب اهتماما كبيرا وقدمه على بقية عناصر الرواية. (٣)

- ابن حمود، أحمد علي : البنية السردية والتوظيف التاريخي في رواية أرض السواد لعبد الرحمن منيف، دراسة عامة، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ٢٠١٠ - ٢٠١١.
- المحيسن، صخر علي : البنية السردية والدلالية في دراسة أرض السواد لعبد الرحمن منيف، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، ٢٠٠٥.
- الخروبي، غدير عثمان طه : المكان في رواية مدن الملح لعبد الرحمن منيف، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٣.

أما دراسة عيسى نوري علي قويدر والموسومة بـ (عبد الرحمن منيف روائيا) فقد اعتمد فيها على تقسيم الدراسة فصولا ليعالج النواحي الموضوعية والفنية من خلال تقصي أهم الموضوعات التي طرحتها الروايات. (١)

ولعلّ المسوغ لهذه الدراسة أنّ جميع الدراسات السابقة تناولت عنصر الزمان أو المكان أو الشخصيات في روايات عبد الرحمن منيف بشكل عام ودون الربط بينهما، أما هذه الدراسة فقد حاولت الربط بينهما واتبعت أسلوبا تحليليا ووصفيا للوصول إلى نتائج محددة تخص موضوع ثنائية الأرض والإنسان ويمكن تطبيقها وتعميمها.

وقد فرضت طبيعة الدراسة والأسئلة التي ولدتها تقسيمها إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة، وضحت المقدمة أهداف الدراسة والدراسات السابقة، أما التمهيد، فتناول حياة المؤلف والمؤلفات التي تحدثت عنه، ثم تناول الموروث الثقافي والسياسي والديني وانعكاسه على اعمال عبد الرحمن منيف الابداعية.

أما الفصل الأول : فتناول الأرض والهوية وعلاقتها بالإنسان ماضيا وحاضرا ومستقبلا، والعوامل المؤثرة في بناء الهوية.

وقد تناول الفصل الثاني: الأرض والسلطة وأبعادها الدّلالية والرمزية، فبيّن أثر السّلطة في تغيير العلاقة بين الأرض والإنسان ومراحل تحولها في روايتي (مدن الملح) (وأرض السواد) متّبعا الأبعاد الدلالية والرمزية لهذه العلاقة، وذلك من خلال التحليل والتمثيل على ذلك من الروايتين.

---

(١) قويدر، عيسى نوري علي : عبد الرحمن منيف روائيا، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٣.

أمّا الفصل الثالث فكان دراسة فنية للروايتين متناولا أهم العناصر الفنيّة للرواية كالسّرد والشّخصيات والوصف والحوار واللغة. وقد جاءت الخاتمة لتبيّن خلاصة الدراسة وأهم النتائج والتوصيات.

التمهيد

حياة المؤلف: ولد عبد الرحمن منيف في مدينة عمان. الأردن عام ١٩٣٣ لوالد سعودي من نجد، وأم عراقية. بعد إنهاء الدراسة الثانوية في عمان التحق بكلية الحقوق في بغداد عام ١٩٥٢.

في بغداد نشط في العمل السياسي المعارض ما أدى إلى طرده عام ١٩٥٥، فواصل دراسته في جامعة القاهرة وفي عام ١٩٥٨ سافر إلى يوغسلافيا وتابع دراسته في جامعة بلقراد فحصل عام ١٩٦١ على شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية في اختصاص : اقتصاديات النفط / الأسعار والأسواق، ثم قدم إلى سوريا بعد حصوله على الدكتوراه وعمل في الشركة السورية للنفط وفي عام ١٩٧٣ قصد لبنان وعمل في مجلة "البلاغ" ثم سافر عام ١٩٧٥ إلى العراق وتولى تحرير مجلة "النفط والتنمية حتى عام ١٩٨١ حيث غادر العراق إلى فرنسا وتفرغ إلى العمل الأدبي. في عام ١٩٨٦عاد إلى سوريا واستقر في دمشق حيث أقام حتى اليوم الأخير من حياته ٢٤ كانون الثاني ٢٠٠٤ متفرغ للعمل الأدبي ومشارك في هيئة تحرير (قضايا وشهادات) كتاب ثقافي دوري يصدر فصليا.

نشر عبد الرحمن منيف أول رواية وهي (الأشجار واغتيال مرزوق) عام ١٩٧٣ ثم رواية (قصة حبّ مجوسية) عام ١٩٧٤ ثم رواية (شرق متوسط) عام ١٩٧٥ وقام بعدها بكتابة رواية (حين تركنا الجرس) عام ١٩٧٦ وكتب بعد ذلك رواية (النهايات) عام ١٩٧٧ وجاءت بعدها رواية (سباق المسافات الطويلة) عام ١٩٧٩ وبعد ذلك اشترك مع جبرا إبراهيم جبرا في كتابة رواية (عالم بلا خرائط) عام ١٩٨٢ وقام بعدها بكتابة روايته الضخمة (مدن الملح) التي تتكوّن من خمسة أجزاء وهي (التيه) عام ١٩٨٤ و(الأخدود) عام ١٩٨٥ و(تقاسيم الليل والنهار) عام ١٩٨٩ و(المنبت) عام ١٩٨٩ و(بادية الظلمات) عام ١٩٨٩ وتلاها رواية تعدّ جزءا ثانيا لرواية (شرق المتوسط) وهي (الآن هنا أو شرق المتوسط مره أخرى) عام ١٩٩١، ويصدر بعدها مؤلفا بعنوان

(سيرة مدينة) عام ١٩٩٤، وينشر السيرة الغيرية (عروة الزمان الباهي) عام ١٩٩٧ بعد ذلك كله تأتي ثلاثيته (أرض السواد) عام ١٩٩٩، وهي أخر رواية له وبعد ذلك تظهر رواية (أم النذور) التي كتبها في بدايات حياته لكنها لم تنشر إلا عام ٢٠٠٥ ولم يكتب عبد الرحمن منيف إلا مجموعتين قصصيتين وربما كانت هاتان المجموعتان مرحلة تجريبية . لعبد الرحمن منيف الكثير من الدراسات الأدبية والسياسية منها (الكاتب والمنفى) عام ١٩٩١، و(الديمقراطية أولا، الديمقراطية دائما) عام ١٩٩٥، وبين (الثقافة والسياسة) عام ١٩٩٩، (ورحلة ضوء) عام ٢٠٠١، (وذاكرة المستقبل) عام ٢٠٠١، (ولوعة الغياب) عام ٢٠٠١، (والعراق هوامش من التاريخ والمقاومة) عام ٢٠٠٣، (ومبدأ المشاركة) (وتأميم البترول العربي) عام ١٩٧٣، وعملان لم يصدرا إلا متأخرا على الرغم من كونهما البدايات الأولى في حياته الأدبية وهما (أسماء مستعارة) عام ٢٠٠٦، (والباب المفتوح) عام ٢٠٠٦، وصدرت لعبد الرحمن منيف دراستان فنيتان وهما (مروان قصاب باشا رحلة الفن والحياة) ١٩٩٦، (وجبر علوان موسيقى الألوان) عام ٢٠٠٠. (١)

حصل عبد الرحمن منيف على جائزة الرواية العربية في المؤتمر الأول في الرواية الذي نظمه المجلس الأعلى للثقافة في مصر، إضافة إلى عدد من الجوائز الأدبية الأخرى، وقد ترجمت معظم كتبه إلى خمس عشرة لغة كالإنجليزية والألمانية والنرويجية والاسبانية والتركية والفرنسية وغيرها. (٢)

---

(١) قاسم، نبيه، الفن الروائي عند عبد الرحمن منيف، دار الهدى للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٥، ص١٩ .
(٢) الشحات، محمد، قراءة في روايات المنفى العربية عبد الرحمن منيف نموذجا، مجلة المدى الثقافي، العدد ٢٧٠، ٢٠٠٤، ص٧ .

مؤلفات كاملة عن عبد الرحمن منيف

إن النقاد والكتاب والباحثين في دراسة أدب عبد الرحمن منيف وجدوا فيه مادة حية ثرية، ومنهم محمد رشدي دريدي في دراسته التي عنوانها النص الموازي في أعمال عبد الرحمن منيف والتي تناولت العنوان ومدلولاته. (١)

أمّا شاكر نابلسي فحاول محاولة جدية لدراسة أدب عبد الرحمن منيف وعند حديثة عن اللغة الروائية عند عبد الرحمن منيف أخذ بالاعتبار العوامل التاريخية والجغرافية، والإيديولوجية والثقافية والسياسية؛ لكي يستطيع معرفة كيفية تكوين وتشكيل هذه الطبقات اللغوية المختلفة في رواياته. (٢)

من خلال القراءة في أعمال عبد الرحمن منيف الروائية اتفق مع ما توصل إليه شاكر النابلسي في أن عبد الرحمن منيف كاتب أيديولوجي، ويؤمن إيمانا كبيرا بالوحدة العربية والاشتراكية العربية، وأن معظم رواياته جاءت لتبشر بهذه الأفكار التي كانت سببا رئيسيا في الصراع العربي، منذ الثورة المصرية عام ١٩٥٢ إلى وقتنا الحاضر فعبد الرحمن منيف ليس كاتب ذاتيا يكتب من أجل أن يروح عن القراء ويسليهم ولكنه كاتب يكتب لهم لكي يريهم وجههم في المرآة ويقدم لهم شخصيات روائية تدافع عن وجودها وتناضل من اجل حريتها وتموت سجنا وتعذيبا من اجل المبادئ التي تؤمن بها إذن يقدم لنا عبد الرحمن منيف أدباً أيديولوجياً. (٣)

ومن الأمور التي يعالجها الباحث الهندسة الروائية في أدب عبد الرحمن منيف فيحلل التكوين اللغوي ويتعاطف مع شخصياته، وهنا أتفق معه أنّ معظم شخصياته حزينة كئيبة بائسة لم يدخل الفرح يومًا قلبها ولم تعرف للسرور أياما، فالشخصيات التي تأتي على هذا النحو من البؤس تظل

---

(١) دريدي، محمد رشدي : النص الموازي في أعمال عبد الرحمن منيف، رسالة ماجستير، جامعة النجاح، نابلس، ٢٠١٠.
(٢) النابلسي ، شاكر، مدار الصحراء ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط١، ١٩٩١، ص٢٢ .
(٣) المرجع السابق ص٣٥ .

علاقتها بالأخر ضعيفة، بل هي تهرب بألمها وبؤسها من الآخرين، وتتخذ مكانا قصيا تناجي فيه نفسها وروحها وتتحدث من خلال تيار وعيها. (١)

وتيار الوعي جاء ليعبر عن الانسياب المتواصل للأفكار والمشاعر داخل الذهن. وبرعت الرواية في إبراز تجربة الفرد الداخلية، ولم تقتصر على نقل الأفكار، بل أفسحت المجال أمام الاستبطان، فنقلت الانفعالات والأحاسيس والذكريات. (٢)

ومصطلح تيار الوعي مرادف لمصطلح المونولوج الداخلي "ويعرف دو جاردن أسلوب المونولوج الداخلي بأنه (الخطاب غير المسموع وغير المنطوق الذي تعبر به شخصية ما عن أفكارها الحميمة القريبة من اللاوعي)". (٣)

والناظر في أعمال عبد الرحمن منيف يجد تيار الوعي (المونولوج الداخلي) موجود بصورة جلية ومن الأمثلة عليه حديث الدكتور صبحي عند عزل السلطان في رواية مدن الملح والملك داود عندما أراد القضاء على الآغا في رواية أرض السواد.

وهذا ما لمسناه من خلال قراءتنا لأعمال عبد الرحمن منيف (مدن الملح، أرض سواد) فمن الشخصيات التي تمثل هذا البعد متعب الهذّال، وأم الخوش في (التيه)، وبدري وأهله في (أرض السواد) وغيرها كثير.

ومن الذين أولوا أعمال عبد الرحمن منيف العناية الخاصة، نضال الشمالي في (رواية أرض السواد) نموذجا للرواية التاريخية، وقد تحدّث فيها عن مفهوم الرواية التاريخية ونشأتها، ويدرس الرواية من خلال ثلاثة مستويات : المستوى التركيبي، والمستوى التاريخي، والمستوى النسقي،

---

(١) النابلسي، شاكر، مدار الصحراء، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط١، ١٩٩١، ص٣٥ .
(٢) زيتوني، د. لطيف : معجم مصطلحات نقد الرواية، دار النهار للنشر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠٠٢، ص٦٦.
(٣) المرجع السابق ص١٦٣.

وأتفق معه في أن الرواية تتماشى مع فتره محدده من تاريخ العراق الحديث، تنحصر في الربع الأول من القرن التاسع عشر، إلا أنها تبدأ فعليا بذكر تاريخ الحكام السابقين قبل الملك داود ودورهم وأثرهم على بغداد، ويصل إلى أنها تتعامل منطقيا مع حدث تاريخي معلن البداية والنهاية، يملي مساراً خطياً صاعداً لا يحد من صرامته إلا تلك التفاصيل البشرية للصور الشعبية اليومية فالحدث الواحد يروى أكثر من مرة على ألسنة العامة، وكل واحد يعبر عن رأيه فتأخذ الشخصيات استقلالها الكامل من حيث التصرف والكلام، وهذا الأمر ملاحظ في رواية مدن الملح أيضا التي تتحدث عن زمن بداية آل سعود في المنطقة وأثرهم عليها، فالرواية تستثمر طاقة التاريخ فتعيد كتابة المكتوب، والشخصيات التاريخية الفعلية تشاطر الشخصيات المتخيلة، ومنها الذي تعيشه فيتآزر من قبل هذا التاريخ عندما تعرض من بداية الرواية ملخصا تاريخيا لأهم فترات الحكام في الحجاز والعراق.

وعلى هذا فالإنسان المثقف الواعي المطلع على تاريخ الدول يعرف الهدف الذي يسعى عبد الرحمن منيف لإيصاله من خلال أعماله الروائية، فأرض السواد مثلا استحضار لفترة محددة من تاريخ العراق لغايات استقصاء وبحث واستظهار مقدرات الوطن.

لذا؛ طافت أعمال عبد الرحمن منيف ووصفت الأماكن والبشر. كما أن العودة إلى تاريخ الحجاز والعراق ولهذه المرحلة بالذات يكشف لنا عن بعد إسقاطي فهذه المرحلة من تاريخهما الحديث مرحلة الأمير خزعل والملك داود فإنها تماثل بعض جوانب المرحلة الراهنة، من حيث الصراع الدولي والتنافس للسيطرة والاستحواذ على المفاتيح الأساسية في المنطقة، بالتالي إخضاعها وإلحاقها بغيرها، وهذا ما نراه بأعيننا الآن، فعبد الرحمن منيف أراد استجلاء العظة والعبرة مما

حدث في تلك الفترة ووضع ذلك حاضراً أمام القارئ ليسهم في استيضاحه، ومن ثم الحكم عليه، فالماضي عنده يتشكل حاضرا في ذهن قارئ الرواية. (١)

ومن الدراسات التي تناولت عبد الرحمن منيف بالاهتمام دراسة نبيه القاسم في الفن الروائي عند عبد الرحمن منيف التي اسقط فيها نبيه القاسم عواطفه على الدراسة وتناول المكان والزمن والشخصية وأبدى إعجابه بأدب عبد الرحمن منيف؛ لأن القارئ في رأيه عندما يقرا أية رواية له يحلق في أجواء روائية غير معهودة شكلاً ومضموناً ويأخذه إلى عالم عربي وبالتحديد في الشرق دون أن يضعه في بلد محدد، وهذا ما أخالفه الرأي بعض الشيء؛ لأن عبد الرحمن منيف في (مدن الملح) مثلا يذكر الحجاز وحكامها، أما في (أرض السواد) فإنه يحدد البلد ويخصص الرواية للقارئ العراقي، وذلك من خلال اللهجة التي استخدمها مع أنّه يواجه معاناة وهموم وواقع وآمال وأحلام المثقف العربي في كل بقعه في هذا العالم، ويشعر إلى أي مدى هو بعيد عن هذا العصر الذي يعيشه العالم المتحضر المعاصر، وكأنه لا يزال ينزوي في خبايا القرن الرابع عشر، فهو غريب عن هذا الزمن الذي يسمونه زمن الحداثة وما بعد الحداثة، ويدرك أن لا علاقة له مع هذا الزمن لا من قريب ولا من بعيد. (٢)

يؤكد نبيه القاسم أن الإنسان العربي يعيش حالة الاغتراب الكلية وكأنّ لا صلة له بكل ما يحيط به من ناس ومواقع وزمان هو إنسان لا انتماء حقيقي له ضائع لا يعرف كيف يختار طريقه وإلى أين توصل به هذه الطريق. (٣)

---

(١) الشمالي، نضال : الرواية والتاريخ، ط١، عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٦م، ص٢٤١.
(٢) القاسم، نبيه : الفن الروائي عند عبد الرحمن منيف، دار الهدى للطباعة والنشر، ط١،٢٠٠٥، ص٣٠ .
(٣) المرجع السابق ص ٦٥ .

والناظر في أعمال عبد الرحمن منيف يرى أن شخصياته تقسم إلى الإنسان المثقف كصبحي المحملجي في (مدن الملح)، والملا حمادي في رواية (أرض السّواد) والإنسان الشعبي كأم الخوش في رواية التيه، وزينب قوشان في ارض السّواد. ويتوصل نبيه القاسم إلى أن عبد الرحمن منيف لم يعط المرأة دور بطولة، ولكنه اهتمّ أن تكون ذات فاعليه وتأثير وحضور قوي فيذكر الأنثى والزوجة والأم والأخت ولا أتفق معه في أن عبد الرحمن منيف لم يعط المرأة دورا مهما في الرواية، بل كان لها حضور واضح تعدى دور الأم والزوجة والأخت ومن الأمثلة على حضور المرأة في أحداث الرواية دور الشيخة في تسليم الأمير خزعل الحكم بعد أبيه، ثم نزعه منه وإعطائه للأمير فنر، ودور زينب قوشان في المحافظة على الحقّ مهما حدث، وأم الخوش التي لم ترضخ للذلّ وماتت من أجل البقاء في وادي العيون، وما فعلته روجينا في أحداث أرض السّواد والقضاء على الآغا ومساعدة الحاكم، وغيرها الكثير من المواقف التي تظهر دور المرأة، وإن لم يكن بشكل رئيسي، ولكنها حاضرة في العمل الروائي.

إن أنانية قيمة الكاتب بإبداعه هي أن يقرأه الناس، أمّا الكاتب الملتزم فيحلم أن تؤثر أفكاره في الناس كالبذور الطيبة في الأرض، وهذا ما رأيناه في أعمال عبد الرحمن منيف (مدن الملح وأرض السّواد).

وأول ما يطلبه عبد الرحمن منيف من جمهور قرائه هو أن يطرحوا على أنفسهم السؤال الذي ختم به رواية عالم بلا خرائط التي ألفها مع جبرا إبراهيم جبرا : أين مكاني من هذا كله؟ هل سأجده؟ هل سأكون جديرا بالمستقبل؟ (١)

(١) جبرا إبراهيم جبرا، منيف، عبد الرحمن : عالم بلا خرائط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٩٢، ص٣٨٣.

هذا السؤال شديد الصعوبة وشديد البساطة، فهو يتطلب أن نعرف ما نحن فيه لنعرف مكاننا منه، ويتطلب أن نلتزم بقيم المستقبل لنكون جديرين بالانتماء إليه. فأسئلة عبد الرحمن منيف من نتاج الواقع الذي انخرط فيه بأدبه وحياته.

اختار عبد الرحمن منيف طريق الوعي، وآمن بأن كشف الماضي سيساعد على قراءة الحاضر، وأن كشف الواقع الراهن سيؤدي إلى الثورة عليه، فسلط الضوء على مدن النفط وأرض السواد العراق التي أنشأتها الثورة الطارئة؛ ليبين أنها كيانات مصطنعة مبنية على الرمل فلا جذور لها ولا مستقبل، وسلط الضوء على سياسات الأنظمة وممارساتها؛ ليبين ما حققت من انجازات في العقود الثلاثة الأخيرة، ولكن في مجال واحد هو القمع مع تباين وجهة النظر في العملين.

عبد الرحمن منيف مؤرخ ولكنه يكره سجن التاريخ، فالتاريخ هو الماضي وعبد الرحمن منيف مسكون بالمستقبل، وهو روائي ورواياته مشدودة إلى المكان ولكنها ترفض أن يبتلعها المكان، لذا هربت بعناوينها من مدن النفط إلى (مدن الملح) ومن العراق إلى (أرض السواد).

وحين اختار عبد الرحمن منيف الرواية طريقا للنضال جعل من رواياته وعاء للمعرفة، وجعل من المعرفة أداة للوعي، وجعل من الوعي محرضا للفعل، فقد تعلم أن الجهل حين يتفشى في الناس يحرض الحكام على التسلط، وأن المعرفة وحدها تحرر، وأن أهم ما ينبغي كشفه ومعرفته هو المغيب؛ لهذا عرض في رواياته الكبيرة (مدن الملح وأرض السواد) الجوانب التاريخية التي لم يسجلها التاريخ، وعرض في حوارات رواياته الأخرى الكثير من المشكلات النابعة من غياب الوعي.

ومن الأمور التي أدركها عبد الرحمن منيف حين اختار الرواية وسيلة للوعي أنّ العمل القومي لا يقوم بالسياسة وحدها، بل بالثقافة أيضا لأنّ بناء الذات الثقافية العصريّة ضرورة في زمن زاد فيه الانفتاح وضعفت الحدود وصار البقاء للأصلح؛ فجدّ مع سائر المبدعين في السعي لخلق رواية عربية ذات شخصية متميزة، والتمايز المقصود ليس في الموضوعات وحدها بل في الوعاء الذي يضمها على الأخص، ولطالما لفت عبد الرحمن منيف غياب التراكم الثقافي في مجتمعنا فنحن في الغالب لا نقرأ وإذا قرأنا لا نراكم، وإذا كتبنا نبدأ دائما من البداية لهذا كانت حسرته كبيرة على كل من يغيب من المبدعين لأنه سريعا ما يصبح نسيا فقال في لوعة الغياب : "ما يكاد الموت يختطف واحد من المبدعين وبعد كلمات الرثاء التي تشبه بعضها بعضا وما أن يمر وقت قصير حتى ينسى ذلك المبدع ويغرق أكثر في التراب في الوقت الذي يجب أن يكون الموت مناسبة لقراءة المبدع قراءة موضوعيه وإعطائه المنزلة التي يستحقها وليكون إبداعه لبنة في البناء الذي يكون الذاكرة". (١)

ما تعب عبد الرحمن منيف من تشجيع القارئ على المساءلة والقلق، ولا على المعرفة والعمل، بل وظف قلمه للدفاع عن قيم العصر والعدالة التي تحرض العقل على قيم العصر الفارغة لغياب صورتها في وعي شعبنا؛ لذا قام عبد الرحمن منيف بتصويرها بموهبة عالية وصبر على جمع المعلومات وعلى التمثيل بدقة متناهية، فجعل عبد رحمن منيف من حياته وكتابته وكتبه شيئا واحدا، وسيتذكر القراء دائما ما كتب ولكنّهم سيتذكرون أنه فضل الظل على الضوء والزارع على البائع فاختار أن يحرث الأرض ويبذر الحب لا أن يعرض النتاج ويساوم.

---

(١) منيف، عبد الرحمن : لوعة الغياب، المؤسسة العربية للدراسات والمركز الثقافي العربي، بيروت، ط٢٠٠٠، ص٩.

علاقة جدلية تلك التي تربط الأدب بالأرض والأرض بالإنسان، بل هي علاقة روحية بين الإنسان وأرضه المحبوبة المملوءة بعرق الكادحين ودمائهم ودموعهم، فالأرض هي رمز بقائهم، وهي الهوية والانتماء، هي الوجود والصمود، التي تشكل أحد الملامح والصور التي جسدت وعكست وحدة وتلاحم الشعب المتيم بحبها بأروع وأبهى الصور.

والمتتبع للتاريخ يجد الشعوب تنتفض مع قواها النضالية ضد أي اعتداء على الأرض القائم على النهب والمصادرة ليقتلع تاريخها وتراثها وجذورها، وسقوط الشهداء والجرحى أكبر دليل على تماهي الإنسان مع الأرض.

عالج الكتاب والأدباء والشعراء قضية الأرض في نصوصهم الأدبية الشعرية والنثرية، وعبروا بصدق عن الشعور والإحساس الوطني، وحذروا من السماسرة ونبهوا إلى المشاريع والمخططات المرسومة التي تستهدف الأرض ومقدراتها، فصاغوا روائع القصص والحكايات التي تتحدث عن ارتباط الإنسان بأرضه وتكشف العداء على روح الهوية وعبق التاريخ واغتصاب الأرض والجنسية باسم القانون.

وما ظهور أدب المقاومة إلا لأنه يصور الواقع، ولم يجد خيارا أمامه سوى المقاومة للتصدي للمؤامرات التي تحاك ضده والممارسات التي تثقل عليه وتسلبه كل حقوقه الشرعية والإنسانية والوطنية، وهو ملح الأرض وثراؤها تعددت وتشعبت صوره في سرد قصص المقاومة والصمود، وحيث نتحدث عن ثنائية الأرض والإنسان في الأدب بشكل عام، وفي أدب عبد الرحمن منيف بشكل خاص، لا بد أن تظهر أهمية هذه الثنائية، وأن وجود الإنسان لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال المكان (الأرض).

إن التطورات التي حدثت في القرن العشرين وخصوصا بعد ظهور النفط قسمت الشعب إلى قسمين، وبكل ما يحمله الانقسام من ظروف وتجارب وتصادم مع الحياة، لكنه يصب في مأساة شعب اقتلع من دياره أو بقي فيها محتلا وشكل هذا بؤرة ومحورا للأرض في الأدب نثرا وشعرا.

ولعل السمة الأبرز في أدب الشتات والأرض المحتلة هي تلك الاختلافات الواضحة من حيث علاقته بالزمان والمكان، ولهجة الخطاب والاتجاهات، وانشغاله الخاص بالقضية السياسية السائدة، وظهور الشخصية الأمريكية والأوروبية فيه أو اختفائها، وتميز بعض هذا الأدب ببعده عن الكائنات إلى موضوعات إنسانية واسعة رغم حجم المأساة واستمرارها.

ومن خلال أعمال عبد الرحمن منيف الروائية نجد هذا الأدب الذي بدأ ظهوره اللامع بداية السبعينات حين نشر روايته (الأشجار واغتيال مرزوق) ولفتت أنظار النقاد إلى قدرة عبد الرحمن منيف المتفوقة في مجال الرواية واحتفى بها المشهد العربي.

أعمال عبد الرحمن منيف صورت المأساة بصورة تقطر شعورا بالذنب عند المثقف لعدم استشرافه لضياع وطنه وتشرده حتى وقعت المأساة.

والمتبصر في أعمال عبد الرحمن منيف يجد نقد الذات فهو ابن مأساة، ولهذا صور الشتات العربي وضياع الأحلام المتشردة بحثا عن الأمن والراحة في مناطق أخرى.

وما هذه الأزمة إلا لأن عبد الرحمن منيف ملتزم بفكره، الذي أدى لمنعه من دخول الخليج والعراق فعاش حياة تتحكم فيها ظروف وأحداث نابعة من رفضه للأسر وضياع الوطن، مثلما تتحكم فيه نوايا الآخرين وشكوكهم ومخاوفهم، فالكاتب الذي يفكر في التوجه توجها منفصلا عن السياسة ككاتب يتنكر للواقع والتجربة والانغماس في الحياة اليومية العادية، ومعناه صيانة حياة الفرد ذاته وخيانة شعبه، وهذا ما رفضه عبد الرحمن منيف.

من خلال أعمال عبد الرحمن منيف لا يسعنا إلا أن نقول إن أعماله الروائية استطاعت أن تترك بصمة واضحة في أدب الأرض الذي جاء أدبا شديد الواقعية وعميق الرؤية ومواكبا للتطورات السياسية.

الثقافة أكثر المفاهيم تداولا، فهي مفتاح الإدراك بحق الإنسان الشرعي في سيادة الكون كما تساعد في بناء شخصيته وتؤثر فيه، وعلى هذا فالثقافة ظاهرة ملازمة للإنسان باعتباره يمتلك اللغة التي تمثل وعاء الفكر الذي ينتج عن تفاعل العمليات العقلية والنفسية التي يتمتع بها الإنسان دون غيره من الكائنات.

والعناصر الثقافية وجدت مع الإنسان منذ أحس بوجوده الشخصي الاجتماعي؛ لذا يمكن القول إن مفهومها أخذ يتطور ويتسع وتتحدد معالمه مع تطور الإنسان.

ومن المفاهيم الدالة على معنى العناصر الثقافية التكوين الفكري – لشخص أو جماعة – المرتبط بما ينتج عنه من تطبيقات أو أنماط سلوكية يكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع، والتي أنشأها هذا المجتمع خلال عملية تطوره التاريخي، فهي طريقة حياة الناس وكل ما يملكونه ويتداولونه اجتماعيا. (١)

فهي تنظيم لدرجة ما للقوى الداخلية للفرد، إذ ترتبط تلك القوى لديه بكل مركب من الاتجاهات والقيم والنماذج الثابتة بعض الشيء، والخاصة بالإدراك الحسي التي تفسر إلى حد ما ثبات السلوك الفردي. (٢)

لذا؛ يمكن القول إن مفهوم الثقافة يعبر عن الوصف الاجتماعي للإنسان والذي يشمل الصفات التي تتكون عن الكائن البشري من خلال التفاعل مع البيئة والتعامل مع أفراد المجتمع بصورة عامة.

---

(١) صليبا، جميل : المعجم الفلسفي، ج١، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢ ص٣٨٧.
(٢) حمد، إنصاف : المرأة والموروث الثقافي، مجلة المعرفة، رقم العدد٤٦٣، ص٢.

ومما يثير الانتباه عبارة (الثقافة إرث اجتماعي) (١) لأنها عبارة عن تشكل تاريخي وتكتسب درجات من الصلابة ولا تأتي إلا بالاكتساب (التعلم) أي لا تورث بيولوجيا، وإنما تورث من البيئة والمجتمع الذي يعيش فيه الإنسان، وعليه يمكن اعتبار الثقافة العامل المهم في تصنيف المجتمعات والأمم، وتمييز بعضها عن بعض من خلال النظر لما تحمله من مضمونات الثقافة من الخصائص والدلالات ذات الأبعاد الفردية والاجتماعية والإنسانية، لأن هذا المركب (الثقافة) يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعادات وغيرها من القدرات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضو في المجتمع. وهذه القدرات صفتها العامة المشاركة وبمعنى آخر فإن الثقافة لأي مجتمع هي أوجه النشاط الذي يبذله أبناء ذلك المجتمع للتكيف مع البيئة الطبيعية التي يعيشون في كنفها والبيئة الاجتماعية التي يتعاملون معها. فالثقافة تتألف من كل ما نفكر فيه ونقوم بعمله أو نمتلكه كأعضاء في المجتمع. (٢)

من خلال ما تقدم يمكننا القول إن الثقافة تهدي الإنسان إلى القيم وتمكنه من التعبير عن نفسه بطريقة ما، تجعله يتعرف على ذاته ويعيد النظر في إنجازاته وسلوكه.

التغير الثقافي قد لا يؤدي إلى ثقافة أفضل بل إلى ثقافة تناسب مجتمع الفرد وبيئته، لأن ليس لأي مجتمع ثقافة واحدة طوال العصور، فهناك مجموعة من الجوانب التي تنبثق عن الثقافات المتتابعة وتتقاطع معها لتبقى حية مؤثره في حياة المجتمع لتكون (المرجعيات) فيما بعد لأي مجتمع. (٣)

---

(١) زيادة، معن، كيف تتغير ثقافة المجتمعات ولماذا، مجلة الواحدة . العدد ٢٨٦ ص٢.
(٢) المرجع السابق - ص ٤ .
(٣) المرجع السابق - ص ٦ .

وليس ما نتحدث عنه التاريخ الماضي المتوقف بأحداثه، وإنما ذلك الماضي المستمر الفاعل الذي لا ينفصل عن الثقافات المتتابعة التي سادت المجتمع في مراحل مختلفة، بل تتقاطع معه لتبقى حية ومؤثرة وبالانتقال إلى مفهوم المرجعيات (الموروث) نجده منسجما لغة واصطلاحا، ففي اللغة أخذت لفظة مرجعيات من الفعل رجع يرجع رجعا ورجوعا ورجعا ورجعانا أو مرجعا ومرجعة : انصرف، وفي الحديث : أنه نفل في البدأة الربع، وفي الرجعة الثلث؛ أراد بالرجعة عود طائفة من الغزاة إلى الغزو بعد قفولهم فينفلهم الثلث من الغنيمة لأن نهوضهم بعد القفول أشق والخطر فيه أعظم. والرجعة : المرة من الرجوع. ورجع النقش والوشم ردد خطوطها. ورجع الواشمة خطها. (١)

أما الموروث فهو في اللغة من الفعل ورث، ورثه ماله ومجده، وورثه عنه وراثة ورثة ووراثة وإراثة ويقال: ورثت فلانا مالا أرثه ورثا إذا مات مورثك فصار ميراثه لك، وأورثه الشيء: أعقبه إياه. (٢) وعليه فهو مفهوم يمتد ليشمل العادات والتقاليد والمعتقدات والآداب والفنون وكل ما حدث من تفاعلات فكرية، سياسية، واجتماعية، وكل ما عاشته الأمة من صراعات وما تفاعلت به مع الحضارات والأمم المختلفة.

وبذلك يمكن القول إنّ المرجعيّة الثقافيّة تتعلّق بعدة أبعاد منها:

١- البعد الاجتماعي ويتعلق بتفاعلات الأفراد والقواعد الاجتماعية والعادات والتقاليد والقوانين مع الواقع المعاش.

٢- البعد الفكري الذي يتجسد في منظومة القيم وقاعدة الخطاب العقلي ومجالات التحليل والتفكير؛ لأن الثقافة لأي شعب هي التي تحدد إبداعاته في كل المجالات وتحدد

(١) ابن منظور : لسان العرب، المجلد الثامن، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠، ص١١٤ – ١١٥.
(٢) ابن منظور : لسان اللسان تهذيب لسان العرب، ج٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص٧٢٨ – ٧٢٩.

توجيهاته في علاقاته مع ماضيه وحاضره ومستقبله ومدى تقبله للتجديد أو معارضته له.

٣- البعد الاقتصادي : المعني بمسائل الإنتاج وأسباب العيش ويحدد القيم الاجتماعية والمعايير التي تكمن وراء السلوك الاقتصادي وتحركه.

٤- البعد السياسي : يتجلى عبر القيم والأحكام المسبقة والموانع والأفكار.

ومن الواضح أن هذه الأبعاد تقوم بينها علاقات متبادلة تدل على التأثر والتأثير. (١)

فالمرجعيّة الثقافية تتعين في جملة من التصورات والمعتقدات والعادات والتقاليد و الأحكام والقيم الدينية، التي تؤثر في الشخصيّة وأنماط سلوكها، ومن مخرجات المرجعيّة الثقافية العمل الأدبي الذي هو روح الأمم وعنوان تقدمها وعظمتها إذ عبرت الشعوب من خلاله عن قضاياها الاجتماعية والسياسية، ورسمت أحلامها وتطلعاتها فهو أقرب الفنون إلى النفس، وما ذلك إلا لأنه يصور التجارب الإنسانية ويعبر عنها.

والمتتبع لمعنى الأدب لغة واصطلاحا يلاحظ الصلة بينهما، فالأدب في اللغة أن تجمع الناس إلى طعامك، وهي المأدَبة والمأدُبة، والآدب الداعي. من هذا القياس الأدب أيضا، لأنه مجمع على استحسانه، فأما حديث عبد الله بن مسعود : (إن هذا القرآن مأدُبة الله تعالى فتعلموا من مأدبته) فقال أبو عبيد من قال مأدُبة فإنه أراد الصنيع يصنعه الإنسان يدعو إليه الناس. قال : ومن قال : مأدَبة فإنه يذهب إلى الأدب بجعله مفعلة من ذلك ويقال إن الأدْب العجب، فإن كان كذلك فلتجمع الناس له. (٢)

(١) صحيفة الأيام البحرينية ـ منوعات ـ العدد ٩٣٤٣، السبت ٨، نوفمبر، ٢٠١٤.
(٢) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة، المجلد الأول، دار الكتب العلمية، إيران، ١٩٨٠، ص٧٤ – ٧٥.

أما في الاصطلاح فقد نقل الدكتور صلاح فضل في بلاغة الخطاب وعلم النص عن بارت (الأدب ليس سوى لغة، أي نظام من العلامات ووجوده ليس في رسالته، بل في هذا النظام). (١)

وعليه فإن الأدب نتاج إنساني، ووظيفة نوعية للروح الإنسانية تسعى إلى بناء الأمة (العائلة الروحية) التي لا يحددها شكل الأرض، بل هي مجموعة الأنماط الفكرية والسلوكية التي تسهل تكيف الفرد بمحيطه العالم.

فالأديب المبدع يستطيع أن يستلهم من التاريخ الماضي والحاضر مادته الأدبية، ويعيد صياغتها بطريقة جمالية خاصة تظهر شخصيته بشكل يختلف عن الآخر.

ومن الأجناس الأدبية التي تظهر قدرة الأديب المبدع على تصوير واقع الامة والمجتمع الذي يعيش فيه (الرواية).

فالرواية جنس أدبي حديث تبدأ بالعناصر التي توافق خصوصيتها في محاولة إيجاد الذات الإنسانية الحرة. (٢)

لذا؛ من الأمور التي تستوجب الملاحظة أن الرواية تتشكل من الأفكار والمبادئ التي يتبناها الروائي؛ فهو يجد ذاته في روايته بعيدا عن كل ما يكدر خصوصيته التي لا احد يحب أن تستلب منه.

هذا الجنس الأدبي في مسماه (الرواية) مصطلح لا علاقة له في المسميات الموجودة في المعاجم العربية اللغوية فمثلا في الصحاح الرواية التفكير في الأمر ورويت على أهلي ولأهلي إذا أتيتهم بالماء، ويقال : من أين ريّتكم؟ أي من تروون الماء ورويت الحديث والشعر فأنا راوٍ في الماء والحديث والشعر وتقول : أنشد القصيدة يا هذا ولا تقل اروها إلا أن تأمره براويتها أي

(١) فضل، صلاح : بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، ١٦٤، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ١٩٩٢، ص٤٨.

(٢) الشريف حبيلة ، قضية الشكل في الرواية، مجلة البيان الكويتية، العدد ،٤٦٥ ابريل ٢٠٠٩، ص٨ .

استظهارها، فالتروي في الأمر، والإرواء في الماء، ونقل الأخبار والأحاديث هو ما يتضمن مصطلح الرواية قديما.

أما في الاصطلاح فهي عند (إ.م. فوستر) فتعني "أي عمل قصصي نثري يزيد عن خمسين ألف كلمة". (١)

والرواية في الصورة العامة، نص نثري تخيلي سردي واقعي غالبا يدور حول شخصيات متورطة في حدث مهم، وهي تمثيل للحياة والتجربة واكتساب المعرفة. (٢)

وعليه الرواية شكل فني أنتجته ثقافة المجتمع لتكوينه من خطابات تعيها ذاكرة الجماعة ويترتب على كل فرد اتخاذ موقف اتجاهها، لأن طبيعة بنية الرواية طبيعة اجتماعية باعتبار أن المظهر اللساني للنص هو في الوقت ذاته اجتماعي والواقع الروائي واقع رمزي يقابل الواقع المادي الخارجي. (٣)

وقد تناول بعض الأدباء أمثال مكاروفيسكي* النص الروائي كحدث اجتماعي لأنه أنتج داخل المجتمع، ويعبر عن علاقات اجتماعية محددة ومشروطة بظروف حضارية. (٤)

وهنا أتفق مع هذا الرأي لأن النص جزء من الواقع ويشهد على تقاليد عصره وقيمه. ويؤكد بلحيا الطاهر أيضا هذا الرأي في مقالته (والرواية الجديدة – ملامحها الفنية العامة) فيما نقله عن

---

(١) الجوهري، اسماعيل بن حماد، الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٧٩، ص٢٣٦٣- ٢٣٦٥.
(٢) زيتوني، لطيف : معجم مصطلحات نقد الرواية، دار النهار للنشر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠٠٢، ص٩٩.
(٣) علوش، سعيد، الواقع والمتخيل والمحتمل في كتاب الرواية العربية واقع وآفاق، ابن رشد للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٨١، ص١٥٥.
(٤) داودي، سامية، ميخائيل ياختين الرواية مشروع غير منجز، مجلة المغرب، العدد رقم ١٣، ٢٠١٣، ص٢ .
(*) مكاروفيسكي فرنسي (١٧١٢_١٧٧٨)

تودوروف* على أن الرواية تنبني من المادة اللسانية بمقدار ما تنبني من المادة الأيديولوجية التاريخية التي حدد المجتمع دائرتها. (١)

البناء الأيديولوجي بناء القيم التحتي الشامل للعمل الأدبي الذي يبرز من خلال مستويات القيم المختلفة التي تطرح فيه، ويعرف أوسبنسكي هذه الأيدولوجية العامة أو وجهة النظر الأساسية التقييمية التي تحكم العمل الأدبي بأنها (منظومة القيم العامة لرؤية العالم ذهنيا). (٢)

لذا؛ فالرواية قادرة على استيعاب الفنون المختلفة والمتعدّدة وتصوير الحياة وإبراز الدور الاجتماعي والسياسي والثقافي إلى القارئ بالطريقة التي تجذبه وتجعله قادرا على التفاعل معها. والرواية الجيدة قطعة من الحياة لأنّها تعبر عن الحياة بكل ما فيها من مرارة وحلم وطموح ورغبة في التغيير.

مما سبق يتبين لنا أن للرواية دور في نقل صورة الحياة الاجتماعية بكل ما فيها من عوامل التعبير عن الحياة الاجتماعية والقومية. ومن الذين اختاروا الرواية وسيلة للعمل القومي الكاتب الروائي عبد الرحمن منيف لان العمل القومي لا يقوم بالسياسة وحدها بل إن من مقومات العمل القومي الذي سعى إليه عبد الرحمن منيف الثقافة لأن بناء الذات الثقافية العصرية ضرورة في زمن زاد فيه الانفتاح، وضعفت الحدود وصار البقاء للأصلح.

عمل عبد الرحمن منيف مع سائر المبدعين لخلق رواية عربية ذات شخصية متميزة ومن الأدلة على ذلك طلبه في رواية عالم بلا خرائط التي ألفها مع جبرا إبراهيم جبرا أن يطرحوا على أنفسهم السؤال التالي أين مكاني من هذا كله؟ هل سأجده؟ هل سأكون جديرا بالمستقبل؟ (٣)

---

(١) الطاهر، بلحيا (الرواية الجديدة _ ملامحها الفينة العامة) مجلة الراوي، العدد رقم ١٧، ٢٠١٧، ص٦ .
(٢) قاسم، سيزا: بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، ط١، ١٩٨٥، ص١٨٤ ــ ١٨٥.
(٣) جبرا، إبراهيم جبرا، منيف، عبد الرحمن : عالم بلا خرائط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،ط٢، ١٩٩٢،ص٣٨٣.
(*) تودوروف روسي الجنسية (١٨٩٥_ ١٩٧٥).

أسئلة عبد الرحمن منيف من نتاج الواقع الذي انخرط فيه بأدبه وحياته ومما أسهم في تكوين شخصيتيه الجسدية والوجدانية حتى أصبحت أنموذجا نادرا في الوطن العربي كونه سعودي الأب، وعراقي الأم، وأردني المولد، ومصري ولبناني وسوري الإقامة لذا؛ كانت نظرته أبعد عن الأنانية الإقليمية.

هذه الجوانب أدت بنا إلى الحديث عن دور عبد الرحمن منيف في تصوير الواقع الذي عاشه من خلال المرجعيات التي كان لها دور كبير في بنية شخصيته في دراستنا.

اتضح ذلك جليا من خلال سرد عبد الرحمن منيف للأحداث التي مرت بها الشعوب والدول في روايته الخماسيّة (مدن الملح)، والثلاثية (أرض السّواد)، وما ذلك إلا لأنّ الأمم تصبح مرويّات وسرديّات يتناقلها البشر جيلا بعد جيل؛ لحفظ الهوية ضد كل ما يمارسه الآخر نحوها من ضغوطات وممارسات يرغب بتغييرها، ومحاولة طمسها، بل وإبادة كل من يدافع عنها أو يعرب عن انتمائه إليها.

اختار عبد الرحمن منيف كشف الماضي ليساعد على قراءة الحاضر وفهم معطياته ليسهل التعامل معه، ويؤدي إلى الثورة والتمرد على العابثين به.

حاول عبد الرحمن منيف في أعماله مقاومة الواقع في أيامه لأنه شهد أحداث العالم العربي في القرن العشرين فأخذت القضايا الكبرى تشغل تفكيره فاندمج معها، وحاول علاجها ولكن هذه القضايا سرعان ما تحولت إلى شعارات، وبعدها أصبحت واجهة للحكم العسكري والأنظمة المتحجرة، ومن ثم مبررا لاستبداد لا ينتهي، ولأنّ نظرة عبد الرحمن منيف مثالية في علاج هذا الواقع المترهل اختار الكلمة الحرة طريقا له، فكانت أعماله تمثّل صوت الجماعة على مستوى الرواية، فالكتابة قوة كبيرة للردّ على زمن الرداءة، وهي عند عبد الرحمن منيف كما ذكر محمد الشحات عمل نضالي بقدر ما هو عمل فني.

ويعدّ عبد الرحمن منيف الذاكرة الوطنية خاصة في المرحلة الراهنة إحدى المرتكزات الأساسية ليس لإثبات التميز أو الاختلاف، وإنمّا للدفاع عن النفس، أي من أجل البقاء، ثم من أجل الاستمرار والتطور، ففي ظل خلط الأوراق الجاري الآن وبسرعة استثنائية يراد إعادة تشكيل المنطقة وفق إرادة ومصالح القوى المهيمنة وثانيا إجراء تغيرات جوهرية تطال الجغرافيا والتاريخ والعلاقات، وصولا إلى صناعة هوية جديدة. (١)

من أجل هذا حاول عبد الرحمن منيف في رواياته بيان الجوانب المخفية التي لم يسجلها التاريخ ومحاولة علاج بعض المشكلات لدى الشعوب المثقفة.

ومما لا شك فيه أن أي رواية تطرح موضوعا أو قضية ما، تناقشها وتعالجها وتشرح جوانبها بكل دقة وجديّة وهي في دقتها وجديتها وشموليتها تكاد تفوق الشعر والمّدح والقصة القصيرة، فقد آن للرواية أن تصبح ضمير المجتمع، ولوحه الذي يقرأ عليها همومه ومشاكله وقضاياه وإلا فستصبح الرواية هباء أو مجرد ألعاب فنيه لا أكثر.

يؤكد عبد الرحمن منيف رسالة الرواية وهدفها يقول : "إن الرواية فنٌ معماري كبير، متنوع، ويمكن لهذّا الفن أن يستقصي لأبعد الحدود الهموم الكبيرة والأساسية التي تشغل الناس ويمكن من خلال متابعة الصراعات الكبرى والقضايا الأساسية، أن نكتشف مواقعنا، وبالتالي يمكن أن يعاد صياغة المجتمع على نسق جديد." (٢)

ويتابع حديثة في اللقاء ويبين مسؤولية الروائي بقولة "إنّ مسؤولية الكاتب ليس باعتباره ذا ميزة، وإنما لأنّه يتصدى لقضية تهمّ الآخرين". (٣)

---

(١) الشحات، محمد، قراءة في روايات المنفى العربية عبد الرحمن منيف نموذجا، مجلة المدى الثقافي، العدد٢٧٠، ٢٠٠٤، ص٤.
(٢) منيف، عبد الرحمن، جريدة العمل التونسية ـ الملحق الثقافي، عدد ٩٩، ١٩٨٣/٦/٣٠ (مقابلة أجراها معه يوسف سلامة).
(٣) المرجع السابق.

ومما يبينه عبد الرحمن منيف المناخ العربي العام الذي هو العامل الرئيس في إيجاد الموضوعات الروائية الجادة، يقول : "وفي ظلّ الوضع العربي الراهن في ظل غياب الديمقراطية، وتغيب الشعوب ... في ظل هذا الوضع المليء بالقهر والاستبداد واللامنطق، في ظل الهزائم المروية، والاستعراض المذل للأنظمة الحائرة المهزومة، لا يمكن الاستمرار في السكوت ، ولا يمكن المشاركة في هذا المسار المخزي ولذلك يجب أن يتحمل كل إنسان مسؤولية وأن يحاول إيصال الكلمة من أجل وصول الفعل، وبالتالي فأنّ الكلمة الآن هي عبارة عن تضحية ... يبدو لي أنّ الكلمة الصّادقة في المرحلة الحالية لا تقل ضرورة وأهمية عن حمل السلاح، ومن هنا، فإن الذي يكتب لا يطلب ميزة ولا ينتظر مغنما، بل ربما كان مطلوب منه أن يقدم الحساب ... الخ (١)

لقد استقرّ في وعي الناس على أن المثقف المفكر قادر على تمثل حالة أمته واستيعابها ومن ثم التعبير عنه دون أن يعني ذلك استبعاد أي فئة من الفئات.

ومن خلال الحديث السابق لعبد الرحمن منيف تبين لنا أنّه يبرز دور الروائي والكاتب في الحراك الثقافي وكما يقول أحد الدراسين : "إنّ عملية الكتابة والكتب احتلت أهمية كبرى في الشرق وهذا الاهتمام نابع من الممارسين لها وهم الكتاب والمروجين لها وهم التجار ومراقبيها وهم رجال السياسة والقضاة والزاعمون أنّهم حماه للفضيلة". (٢)

ويهتم عبد الرحمن منيف بالمثقف في العالم العربي في تمزقه بين الحلم والإحباط بين الانتماء والاغتراب، بين الثورة والتمرد، ويصور ذلك المثقف في يقينه وشّكله في سعيه إلى الفعل وخموده واعتزاله وينتهي إلى أنّ ذلك المثقف العربي، ليس في النهاية سوى كائن مفلس محبط

---

(١) منيف، عبد الرحمن، جريدة العمل التونسية ـ الملحق الثقافي، عدد ٩٩، ١٩٨٣/٦/٣٠ (مقابلة أجراها معه يوسف سلامة).
(٢) الرياحي، نجوى، الحلم والهزيمة في رواية عبد الرحمن منيف، مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، مجلد(١١١)، العدد٨، ١٩٩٥، ص٢٠-٢١.

مهزوز الشخصيّة. (١) ومع ذلك فإن المثقف يستمر في زراعة أفكاره ومبادئه بين الناس كالأرض في دورة حياتها.

وعليه فإنّ مسألة الثقافة العربية وتحدياتها قضية دائمة ظلت تشغل عبد الرحمن منيف على امتدادّ أعماله الروائية ابتداءً من(الأشجار واغتيال مرزوق) وانتهاءً (بأرض السّواد).

(١) الرياحي، نجوى : الحلم والهزيمة في رواية عبد الرحمن منيف، مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، مجلد(١١١)، العدد٨، ١٩٩٥، ص١٣.

الفصل الأول

الأرض والهوية

وعلاقتها بالإنسان ماضيا وحاضرا ومستقبلا

الفصل الأول

الأرض والهوية وعلاقتها بالإنسان ماضيا وحاضرا ومستقبلا

اهتمت شعوب العالم منذ بداية البشريّة بالمحافظة على تميزها وتفردها اجتماعيا وقوميا وثقافيا، واهتمت بأن يكون لها هوية تساعد في الإعلاء من شأن الفرد في المجتمع وتساهم في وجود زيادة الوعي بالذات الثقافية والاجتماعية مما يساهم في تميز الشعوب بعضها عن بعض.

فالهوية جزء لا يتجزأ من نشأة الفرد من ولادته حتى وفاته، وعلى هذا فللهوية دور في التعبير عن مجموعة السّمات الخاصة بشخصية الفرد، وما ذلك إلا لأنها تضيف للفرد الخصوصية، وإظهار الذات، فهي الصورة التي تعكس ثقافتها ولغتها وعقيدتها وحضارتها وتاريخها والهوية تختلف باختلاف الذات التي قد تكون فرديّة أو جماعية إذ أن الأفراد يختلفون في هويتهم كالجماعات.

تعدّ الهوية نقطة ارتكاز بالنسبة لكل اختلاف؛ لأنّها جملة الخصائص التي تجعل الكائن مختلفا من ناحية، ومستقلا لوجوده الخاص من ناحية أخرى، ولا يوجد هوية لا اختلاف فيها كما لا يوجد اختلاف بلا هوية.

الوجود الخاص في الطبيعة انحاز دائما إلى جانب دعم الهوية لأن كل شيء يحمل نقيضه في داخله كجزء منه، وما من فكر إلا يؤدي إلى تفكير ممكن يحمله على التقدّم والتطوّر، أما التفكير الخارجي إمّا أن يكون مكسبا وأداة تفيد في البناء، أو لا يكون سوى أداة هدم، فيجب أن ينبني التفكير على إرادة ذاتية وعلى أهداف مستقبلية؛ وعندئذ يمكن التمييز بين الاختلاف داخل الهوية وخارجها. أما الاختلاف داخل الهوية : هو اختلاف يلاحظ في إطار منظومة من

الخصائص العامة المشتركة بين مجموعة محددة، وتقسيم الخصائص إلى خصائص مادية وخصائص معنوية، وهي تتحدد بجملة من الثوابت، بحمايتها تحمى المصالح المادية المشتركة للشعوب.

وكل فكرة تتحدث عن الهوية لا بدّ من توضيحها لما لموضوع الهوية من أهمية في تقدّم المجتمع، والمحافظة على تاريخه الذي قد يكون سببا في رقي الشعوب.

وعليه فإنّ الخصائص الماديّة داخل الهوية تتمثّل في حرمة الحدود الترابيّة والبحريّة والجويّة والأموال العامة والثروات ذات الأهميّة الاستراتيجية والمكاسب الأمنية.

أمّا الخصائص المعنوية، فتتمثّل بحرمة المقومات الحضاريّة والثقافية، وأهّمها: اللغة والدين والتاريخ، وحرمة العصبّية الوطنية التي تضمن لكل مواطن الحق في أن يحظى بالحماية بوصفه مواطنا خاضعا لدستور الدولة في الداخل والخارج.

أما الاختلاف خارج الهويّة فإنه يجعل المختلف على عدة صور : إما أن يكون معاديا أو محايدا أو مسالما أو حليفا، ولكنه لا يكون مثيلا إذا بقي مختلفا والذي يحدد العلاقة بينه وبين الآخر هو مصلحته التي قد تقتضي في وقت لاحق علاقة مغايرة. (١)

من خلال هذا الكلام لا بد من العودة إلى تعريف الهوية لغة واصطلاحا، فمن المعاني اللغوية التي وردت في الهوية "أمّه هاوية صارت هاوية مأواه، كما تؤوي المرأة ابنها، فجعلها اذً لا مأوى له غيرها أُمّا له.

---

(١) المهري، محمد المهري، الاختلاف والهوية، مجلة الالتحاق، العدد رقم ٢، ٢٠٠١ ، ص٢.

قالوا إذا أجدب الناس أتى الهاوي والعاوي، فالهاوي الذئب لأن الذئاب تأتي إلى الخصب. قال هُوَيّة تصغير هوّه وقيل الهَوِيّة بئر بعيدة المهواة ، وعرشها سقفها المغمّى عليه بالتراب فيغتر به واطئه فيقع فيها. (١)

وقد عرفها الأستاذ جميل صليبا في المعجم الفلسفي بأنها "التميّز عن الأغيار." (٢)

من خلال الربط بين التعريف اللغوي والاصطلاحي للهوية نجد أنّها كل شيء مشترك بين أفراد مجموعة محددة أو شريحة اجتماعية تسهم في بناء محيط عام، ويتم التعامل مع الفرد وفقا للهوية الخاصة به. وعليه تنقسم الهوية بناء على هذا التعريف إلى مجموعة من الأنواع، ومن أهمها :

– الهوية الوطنية التي تستخدمها للإشارة إلى وطن الفرد.

– الهوية الثقافية التي ترتبط بمفهوم الثقافة التي يتميّز فيها مجتمع ما، وتتميّز بنقلها طبيعة اللغة بصفتها من العوامل الرئيسة في بناء ثقافة الفرد في المجتمع.

وقد ذكر موقع مؤسسة لجان العمل الصحي في (مفهوم الهوية) أن العالم النفسي اريكسون* قام بصياغة عدة حالات للهوية حول مفهومها العام وتقسم إلى أربعة حالات وهي (٣) :

– تحقيق الهوية : وهي إدراك الفرد للهوية الفردية الخاصة به، والتي تهدف إلى تقدير الذات واحترام الصفات الشخصية وزيادة الإنتاجية العامة في المجتمع.

– تعليق الهوية : وهي معاناة بعض الأفراد بأزمة في هويتهم الفردية؛ إذ يفقدون أية قدرة في التعرف على الهوية الخاصة بهم بسبب تعرضهم لاضطرابات نفسية.

---

(١) ابن منظور : لسان العرب، المجلد الخامس عشر، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠، ص٣٧٣ – ٣٧٤.
(٢) صليبا، جميل : المعجم الفلسفي، مادة هوية، طبعة دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٤.
(٣) مؤسسة لجان العمل الصحي (مفهوم الهوية) الشبكة المعلوماتية .
(*) اريكسون، دنماركي- ألماني- أمريكي، (١٩٠٢ - ١٩٩٤).

– انغلاق الهوية : وهذه الحالة تصيب الفرد عندما يتم فرض الأشياء عليه كنوع العمل مما يؤدي إلى انعدام شعوره بالهوية الخاصة به.

تفكك الهوية : وهذه الحالة تنتج عن ضعف في فهم الهوية نتيجة الاضطهاد والظلم.

والمتتبع لأعمال عبد الرحمن منيف الفنية (كمدن الملح، وأرض السّواد) يجد هذه الحالات حاضرة فيها. ففي رواية (أرض السّواد) الجزء الثاني تظهر شخصية بدري ولد الحاج صالح مثالا على تحقيق الهوية فهو اقترب من السلطة الحاكمة على خلاف العائلة، ونال مرتبة عالية مع رفض والده لهذا الاقتراب. وبعد شهور عاد بدري إلى المحلة. ووصوله أثار اهتمام المحلة وخلق مناخا جديدا في قهوة الشط فالعائد بنظر المقيمين بالإضافة إلى كونه صديق للجميع، فإنه الشخص المناسب والمؤهل لفض المنازعات، وإنهاء الخصومات كما أنّه الوحيد القادر على التعامل مع الجميع بروح من الإخوة والمحبة وبالتالي تصفية القلوب. (١)

أما بالنسبة للحالة الثانية (تعليق الهوية) فمن الشخصيات التي تمثلها (سيفو) سقى الماء الذي رفض جميع المغريات التي قدّمها أهل المحلة ليبقى في العمل مع أنّه لا سبيل له لكسب الرزق إلا حمل الماء لأهل المحلة، وكان يحب هذا العمل لكن بسبب الاضطرابات التي أصابته قرر ترك العمل.

"سيفو، بعد الرحلة النهرية وبعد أن سافر بدري إلى كركوك تغير، أصبح أنسانا مختلفا تماما. حتى هو لا يعرف ماذا جرى له أو كيف أصبح نزقا، ميالا للمشاكسة، كما أصبح العمل الذي يقوم به عبئا ثقيلا، أقرب إلى الهم، أكثر من ذلك أخذ يلوم نفسه لأنه بدد حياته في هذه الرحلة العمياء التي لا تنتهي بين الشط وبيوت المحلة، يقوم بالعمل ذاته كل يوم، وكل أيام السنة وأي عمل؟ أن

---

(١) منيف، عبد الرحمن، ارض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج٢، ط٢، ٢٠٠٢، ص١٨.

ينقل المياه الصافية من النهر لتعود هذه المياه إلى النهر مرة أخرى وأن يكن في مكان أبعد من المحلة، بعد أن تكون قد تلوثت وتلونت وتغيرت، أصبحت شيئا آخر ألم يتعب الناس مثله من استهلاك المياه؟ ألا يتوقفون يوما واحدا؟ كان في رحلاته القصيرة، بين الجرف وتلك البيوت المبنية بالطوب، يفكر، يحلم، يسافر لكن فجأة يجد نفسه ذاهبا إلى الجرف ذاته، أو عائدا منه، والمياه تنز على جسده، على الأرض الموحلة قرب النهر ثم المغبرة ما أن يصمد نحو تلك البيوت." (١)

من خلال هذا النص تظهر قضية الأنا "صورة الذات هي صورتنا حين ننظر إلى أنفسنا والتي نعجز عن بلوغها من غير استخدام وسيلة مادية (رسم، تصوير، وصف داخلي أو خارجي) تتميز صورة الذات بصعوبتها، إذ ليس من السهل على الفنان، رساما كان أو مصورا أو كاتبا، أن يحصر ذاته في إطار، وأن ينظر إلى نفسه من زاوية محددة، فتصوير الذات في الأدب يجري غالبا في المتخيل. فهناك تتراءى الذات مكبّرة مرات أو مستترة تحتاج إلى إعادة تشكيل وتهذيب، أو ممتدة في الماضي أو مثقلة بروح النقمة وأجواء الموت والأحلام المطعونة. ما يجمع كل هذا المتخيل هو أن تصوير الذات يتسع دائما لتقديم رؤية ذاتية للعالم قد تتزين بخيوط اللاوعي والخيال إلى حد تحويل صورة الذات ظاهريا إلى نقيضها". (٢)

والنص الذي يعرض شخصية سيفو المضطربة الممثلة للحالة الثانية للهوية (تعليق الهوية) نستطيع ضربه كمثال آخر على الحالة الثالثة (انغلاق الهوية) فمن الملاحظ أنّ شخصية سيفو بسبب الضغط النفسي أصبحت تحلم وتفكر وتسافر، ولكن فجأة يجد نفسه في الجرف ليملأ القرب بالماء. ومن نتائج هذا الضغط انعدام شعوره بالهوية تجاه الأرض التي أفنى عمره في خدمتها

---

(١) منيف، عبد الرحمن، ارض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج٢، ط٢، ٢٠٠٢، ص٧.
(٢) زيتوني، لطيف : معجم مصطلحات نقد الرواية، دار النهار للنشر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠٠٢، ص١١٨.

بمتعة تصل إلى درجة اللذة حتى في أيام الشتاء الباردة، لقد تغيرت شخصية سيفو مع أنّه من الشخصيات المهمة لأهل المحلة التي تمثل الثبات على المبدأ (التمسك والتماهي مع الارض).

"إذا كانت رائحة المياه في أوقات سابقة تعبق في أنفه، وتولّد لذة حتى في أيام الشتاء الباردة، فقد أصبحت لها في الأيام الأخيرة رائحة مختلفة لا يعرف كيف يصفها، لكنه لم يعد يطيق هذه الرائحة، وأصبح شكله، وهو يترنح قرب الشاطئ بليدا، منفرا، بل ويثيره هو نفسه. (١)

أما بالنسبة للحالة الرابعة (تفكك الهوية) التي تنتج عن الاضطهاد والظلم فمن الأمثلة عليها في أعمال عبد الرحمن منيف شخصية (شمران) وسوق الحلال الذي أجبر على تركه من خلال القوة (السلطة الحاكمة) بالتآمر مع الدكتور صبحي المحملجي.

هذا السوق بالنسبة لشمران جزء منه كما جاء في رواية (مدن الملح – الاخدود) ولكن هذا الشعور زال بعد نقله إلى منطقة العوالي "مثلما حاول أن ينسى خيوله التي احترقت وأرضه التي سرقت، ثم حاول أن ينسى سوق الحلال أو ينشغل عنه، فإنه يوما بعد آخر يحسّ بانفصال عن كل ما حوله، أكثر من ذلك يحس بالعداء". (٢)

"ومثلما كان سوق الحلال ملجأً وحصنًا لشمران" (٣) بعد أن رفع السوق من مكانه وهجر شمران سوق العوالي، فلم يزره إلا كما يزور قبرا (٤) من خلال ما سبق يتضح لنا أثر الظلم والاضطهاد في تغيير نظرة الإنسان لما حوله، لقيمه ومبادئه وانتمائه (هويته).

---

(١) منيف، عبد الرحمن، ارض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج٢، ط٢، ٢٠٠٢، ص٧.
(٢) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (الأخدود)، المؤسسة العربية للدراسات ط٢، ١٩٨٦، ص٥٤٦.
(٣) المصدر السابق ص٥٤٧ .
(٤) المصدر السابق ص٥٤٧ .

عوامل مؤثرة في بناء الهوية

هناك العديد من العوامل المؤثرة في بناء الهوية، أهمها: (١)

– المجتمع : يساهم المجتمع مساهمة كبيرة في بناء هوية الفرد وتشكيلها بناء على طبيعة البيئة المحيطة به، ويتأثر الفرد بسلوكيات الأجيال السابقة له.

– الانتماء : وهو الارتباط بالمكان الذي يعتمد على دور الهوية في تعزيز مفهومها، وحتى نستطيع إيجاده لابدّ من اشتراك الشعب أو المجموعة في الأرض واللغة والتاريخ والحضارة والثقافة والطموح وغيرها، وهذا ما لمسناه في أعمال عبد الرحمن منيف بشكل واضح وجليّ ومن الأمثلة عليه أهل سوق الحلال في رواية (مدن الملح، الأخدود) وكيف كان انتماءهم لهذا السوق وما تركه من أثر سلبي عندما استولت عليه السلطة وغيرته مع أنه كان جزءاً منهم، وأيضا أهل قهوة الشط في رواية (أرض السواد) وكيف أنّهم لا يأتيهم إلا من تساوى معهم في الثقافة والانتماء للأرض التي يتفانون في الدفاع عنها لبقائها.

فالأرض التي يعيش فيها الفرد تؤثر على الثقافة، والمحيط والبيئة والناس المتواجدون في هذه الأرض يلعبون دورا في كيفية شعور الفرد حيال الثقافة التي يرغب تبنيها، وقد ظهر هذا المنحى في رواية (مدن الملح) و(أرض السّواد) ومن الأمثلة على ذلك شخصية متعب الهذّال وعائلته، وأم الخوش في أرض وادي العيون، وسيفو، وبدري، والحاج صالح، في أرض السّواد، والسّر في ذلك أن الإنسان مجبول على الحنين الملتصق بالأصل والبدايات؛ فهي قضيه وجودية بالنسبة إلى أي إنسان وأي مجتمع بشري، ومنشؤها الخوف من الإحساس بالضياع في هذا الكون، والحرص الدائم على إرادة إثبات الذات والمحافظة عليها فمسألة الأصالة هي وفاء لكل ما يشكل مفهوم الانتماء

---

(١) أبو خليف، محمد : تعريف الهوية، موقع موضوع، ٥-١٢-٢٠١٦.

بمكوناته المادية والمعنوية ومثال ذلك زينب قوشان في رواية أرض السّواد التي لم تتنازل عن حقها في الأرض – رغم الصعوبات التي واجهتها – كان دليلا على التفاني في حب الأرض والتماهي معها.

من خلال ما سبق نلاحظ أن الإنسان ينتمي إلى الأرض أولا، وإلى المجموعة البشرية ثانيا، وهذا من الثوابت في هوية الفرد والجماعة، وما شأن النضال إلا من أجل الأرض والقضاء على الشتات وأي أمر يهدد الهوية، كما رأينا في إعمال عبد الرحمن منيف، ومن أمثلته شخصية متعب الهذال، وعائلته وأم الخوش وشمران ودفاعه عن سوق الحلال في رواية (مدن الملح)، وسيفو وبدري وزينب قوشان في (أرض السّواد) الذين لم يتخلوا عن مبادئهم وثوابتهم، فزينب قوشان التي أخذت هذا الاسم ؛لأنها لم تتخلى عن الوثائق التي تثبت حقها في الأرض، وكلما رأت أحدًا له صلة بالسلطان تتشبث به ليعيد حقها(١) أما شخصية سيفو فهي"أحد أركان صوب الكرخ وأبرز معالمه. يعرفه الجميع ويعرف الجميع، حتى في الصوب الآخر اذا وجد من لم يره، فلا أقل من معرفة اسمه وبعض الحوادث التي تروى عنه... يمكن لحي الشيخ صندل أن يستغني عن أشياء كثيرة، ويمكن أن يتغير قليلًا أو كثيرًا، لكنه لا يستطيع أن يستغني عن سيفو." (٢)

ومن النصوص الدالة على الثبات على المبدأ الحديث الذي دار بين بدري ووالده لترك العمل في السراي والعودة إلى مهنة الآباء والأجداد "عاد بدري إلى البيت استعدادًا للسفر إلى كركوك، فقد قال أبوه، في محاولة لإظهار تفاؤله بأن بدري سيعود إلى مهنة العائلة :

---

(١) منيف، عبد الرحمن، ارض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج١، ط٢، ٢٠٠٢، ص٦٧.
(٢) المصدر السابق ص٤١٤.

_ قال لنا أبو منعم، سيد ناجي البكري، قبل أيام في قهوة الشط، وقد قرأ ذلك في كتاب من كتبه الكثيرة، قال: ((لا تقرب السلطان، أو الوالي، إلا كما تقرب الأسد، فإن طاوعته أتعبك، وأن خالفته أتعبك)).

هز رأسه مرات عديدة، وأضاف، كأنه يحدث نفسه:

_ رب ضارة نافعة ...

وبعد قليل:

_ إذا بيت العلو براسهم خير، واكو بيهم أمل، فلازم السر اللي حصّلوه من الأباء والأجداد يلزموه بأسنانهم؛ أما إذا كل واحد منهم بدا من جديد، وقال: هاي أول الدنيا، فأبد ما راح يصير براسنا خير. نجرب ونبطل، والعمر يمر، والماي تمشي، وبعد ما تمر سنين وأيام نحسّ بالصواب، ونقول: يا حسافا!

وأم قدوري التي كانت خائفة، ربما لخوف بدري، أو لإحساسه بالغبن والمجهول، وكانت تترجم إحساسيها بأن تراكم الملابس والأغذية، وتكثر من النصائح، وتتساءل ما إذا كان من الضروري أن يرافقه أحد من العائلة، هي أو الأب، أو أحد الأخوة من أجل أن تطمئن، ومحاولات بدري في أن يبدو عاديا، وأن الأمور شديدة السهولة، والحياة ستكون له أكثر راحة، بعد (أن خلصنا من السراي ومشاكله)، فإن هذا المدى الجديد الذي ينفتح لا يعرف إن كان خيرًا أم شرًا. (١)

نلاحظ من خلال هذه النصوص أنّ حب الأرض عامل مهم من عوامل ترسيخ الانتماء وتجديد الأصالة واستكمال الهوية "الأرض قصعة من الكيان الإنساني الذي تنمو فيه مكونات

---

(١) منيف، عبد الرحمن، ارض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج١، ط٢، ٢٠٠٢، ص٥٢٦.

الشخصية، ولا تقتصر علاقات التفاعل بين الإنسان والأرض على تأثير الإنسان على الأرض فحسب، "بل إن المكان يحفر فيه الإنسان خصائصه وملامحه فالعلاقة بين الإنسان والأرض علاقة تفاعلية قائمة على أساس قانون الفعل ورد الفعل". (١) وهذا القول يؤكد أهمية دراسة ثنائية الأرض والإنسان في أعمال عبد الرحمن منيف؛ لأن ما يقوم به الإنسان من نشاطات ثقافية وعمرانية وزراعية تعد من عمليات التفاعل مع الأرض، وكلما ازداد التفاعل ازداد الارتباط بالأرض، وازدادت السلوكيات والقيم المتواجدة لدى الإنسان وعبر التاريخ مثل : المحبة والاعتزاز والانتماء التي ترسّخ انتماء الإنسان لأرضه.

فمن الملاحظ أن الإنسان في أثناء عمليات تفاعله مع الأرض يخضع في علاقاته الإنسانية لإحداثيات الأرض فيضفي على أفكاره صفات الأرض مستخدما العديد من منظوماته الثقافية والاجتماعية والسياسية والدينية؛ لتتضافر مع بعضها مكونة ملامح مهمة لهوية الإنسان الثقافية.

وهذه المحاور ظهرت جليّة واضحة في أعمال عبد الرحمن منيف الروائية وأهمها تصوره للأرض الذي يبدأ من الصحراء العربية التي أصابها التطور المؤدي إلى التوتر بين الحاضر والماضي، وبين بداوتها الراسخة، وتحولاتها الاجتماعية بعد ظهور النفط، وبداية الحياة المدنية بكل جوانبها، وكيف أثّر هذا التطور في الأرض على تطور الإنسان .

ففي رواية مدن الملح (التيه) تظهر الأرض بكل خصائصها الجغرافية والروحية والاجتماعية إذ يركز عبد الرحمن منيف في بدايتها على بقعه حية في وسط الصحراء القاحلة، إنها (وادي العيون) البقعة الجميلة التي ظللتها الأشجار وروتها العيون بإرادة الله تعالى لتكون ملجأ للغادين والرائحين لأخذ الراحة والمتعة ومواصلة رحلتهم.

---

(١) العيدروس، علي حسن: (المكان والهوية وهوية المكان)، صحيفة المدينة ٢٠١١/٤/٦ .

"إنه وادي العيون فجأة وسط الصحراء القاسية العنيدة تنبثق هذه البقعة الخضراء، وكأنها انفجرت من باطن الأرض أو سقطت من السماء فهي تختلف عن كل ما حولها، أو بالأحرى ليس بينها وبين ما حولها أية صلة، حتى ليحار الإنسان وينبهر فيندفع إلى التساؤل ثم التعجب كيف انفجرت المياه والخضرة في مكان مثل هذا؟ لكن هذا التعجب يزول تدريجيا ليحل مكانه نوع من الإكبار الغامض، ثم التأمل. إنّها حالة من الحالات القليلة التي تعبر فيها الطبيعة عن عبقريتها وجموحها وتبقى عصية على أي تفسير". (١)

بدأ عبد الرحمن منيف بوصف وادي العيون وصفا جميلا مع أنه في منطقة قاحلة وقاسية ليؤكد أن الإنسان بإمكانه مقاومة الصعوبات والتحديات، التي تواجهه مثل وادي العيون، الوادي الأخضر.

وما هذا الوصف أيضا إلا تعبيرا ناتجا عن مشاعر الكاتب تجاه الأرض التي ينتمي إليها مع أنه لم يعش فيها طوال حياته، بل عاش في عدة مناطق تشتهر بالخضرة والحيوية واللين، ولكن الشعور بالانتماء هو الذي حركه؛ فجعل لشخصياته دورًا في التعبير عن مشاعره تجاه الأرض التي ينتمي إليها كشخصية متعب الهذال في رواية مدن الملح (التيه).

إن متعب الهذال كما صوره عبد الرحمن منيف عاشق لأرض وادي العيون التي يتماهى فيها الإنسان ليخرج أفضل ما عنده، ولكن هذا المكان الهادئ في وسط الصحراء متغير بين يوم وليلة ويقف متعب الهذال مندهشا لا يدري ما الذي يحدث لوادي العيون" خلال أيام قليلة تغير كل شيء في وادي العيون، البشر والطبيعة والحيوانات، فما كاد هذا الأمريكي ورفاقه ومرافقوه يمضون بضعة أيام حتى وصل إلى الوادي عدد كبير من الناس بشر بأشكال وألوان لا يخطر على بال، فيهم

---

(١) منيف، عبد الرحمن: مدن الملح (التيه) ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص٩.

القصير المليء الأحمر الشعر، والطويل الذي يستطيع أن يمد يده ويقطف الثمر، فيهم الأسود الذي يشبه الليل، وفيهم الأشقر، والأحمر، أجسامهم تشبه الخراف المذبوحة عيونهم زرق، وأشكالهم تدعو إلى الخوف والتساؤل، جاؤوا على الجمال والخيول، وجلبوا معهم أشياء لا حصر لها من الصناديق والأحمال والخيام، وخلال فترة قصيرة غير بعيد عن نبع الماء، أنزلوا الصناديق والأحمال ونصبوا الخيام، بدا المنظر الذي تكون خلال فترة قصيرة أشبه بالحلم، متعب الهذال الذي لم يفطن للأمر بسرعة؛ لأنه كان في البستان انتفض بسرعة، وهو يسمع ما يقوله الآخرون، ثم اصفرّ لونه، وفي لمح البصر هرول إلى العين إلى مضافة ابن الراشد ليعرف أي شيء حصل في وادي العيون".(١)

هذا السرد المعتمد على الوصف يظهر تماهي الإنسان مع الأرض حتى في الأوقات الحرجة التي تثير الخوف والحيرة، كما يظهر من خلال وصف الخوف والخطر الذي يشعر بهما متعب الهذّال، ومثال ذلك وصف الرجال الذين جاؤوا بالليل والخراف والأشجار المصفرة، ولكل هذه الأشياء دلالة واضحة تختفي خلف الكلمات.

إذاً تغير وادي العيون كثيرا بسبب سيطرة الأمريكان عليه، وتوسعت الكشوفات البترولية في كل مكان، ورحل البدو وتشتتوا في الصحراء، ولكن متعب الهذال وقومه وكثيرا ممن عشق هذا الوادي يشعر بغصة في حلقه، ويرى أنه اجتث من الأرض التي امتزج عرقه ودمه وعظام أجداده بترابها وظل يقاوم الأمريكان ويعد العدة للانتقام منهم، ومن الدلائل على بقاء أهل وادي العيون في مقاومة الأمريكان ما حدث من ملحمة في معسكر الأمريكان، وقتل على أثرها ابن نفاع الذي تصدى للرصاص لينقذ بعض العمال العالقون في معسكر الأمريكان.

(١) منيف، عبد الرحمن : مدن الملح (التيه)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص٧٢.

تتشابك الأحداث وتظل صورة متعب الهذال حاضرة في عيون الناس؛ لأنه رمز الشجاعة فرفض الذل، وحافظ على الهوية الراسخة مثل رسوخ الأرض، فبقي طيف متعب الهذال حاضرا على الدوام.

أما الذين وصلوا متأخرين بعض الوقت إلى المعسكر، فقد ذكروا أنهم شاهدوا من بعيد رجلا على ناقة بيضاء يطارد الجنود ويطلق النار عليهم، وأنه اقتحم البوابة الرئيسية، وقد تساءل الكثيرون ما إذا كان الرجل هذا هو متعب الهذّال. (١)

نعود إلى ما قبل هذا الحدث ونركّز على كيفية امتزاج الأرض (وادي العيون) بروح الإنسان وكيانه فهي العامل الجاذب لوجوده وذاته، فالإنسان مستعد أن يضحي بكل ما يملك من أجل الدفاع عن أرضه، ويظهر هذا في موقف متعب الهذال مع الأمير، عندما ذهبوا إليه ليجد حلا لوجود الأمريكان في وادي العيون، وكانت المناقشة حادة بينهما حتى وصل الأمر بمتعب الهذال أن لم يحسب أي حساب لوجود السلطة، وما ستفعله في سبيل المحافظة على وادي العيون، يقول في معرض مناقشته للأمير : "اسمع يا أبو رضوان أنا شيبة بعمر والدك وصوتك لا تتركه يفلت وما بينا أصقى حتى تسمعه وإذا أردت أن تحمر عينك فما كل الناس تخاف العين الحمرا وحنا جينا نقول لك ما شافت عيونا. كان لهذه الكلمات تأثير قوي ولم يقتصر على الأمير والرجال الذين حوله إذ امتد إلى ابن هذال نفسه، فشعر أنه قوي إلى درجة لا يخاف شيئا أو أحدا وأنه مستعد لقول كل ما يريد مهما كلفه ذلك وهذه الطريقة في الحديث تنقل عدوها بسرعة وتترك نتاجها دون خطأ إذ ما لبث أن تابع : ... وديرتنا يا أبو رضوان صغيرة ونعرف بعضنا والكريم حنا مثله كرام واللئيم ما له عندنا إلا العصا؛ والكفار من يوم ما حلو بديرتنا وقبلهم الثلاثة اللي جاؤوا في الشتاء ما شفنا إلا المصايب ...

---

(١) منيف، عبد الرحمن : مدن الملح (التيه)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص٥٩٧.

وتغيرت نبرة الصوت مرة أخرى :

- حنا اليوم بآخر الربيع، العربان تركت البادية، وطلايعها وصلت لوادي العيون وما أظن أن في البيار ما يكفي البشر فكيف تريدنا إن نترك الكفار يرفعون من البيار كل مطلع شمس ما به حمل وحمل يرمونها في الأرض ونسكت عليهم." (١)

من خلال هذا النص نلاحظ أنّ الإنسان المنتمي إلى أرضه لا يهمه فقط مصلحته وإنما مصلحة الجميع ومقدرات الأرض كي تبقى تنعم بالحيوية، وهذا الأمر كثيرًا ما ركز عليه الكاتب عبد الرحمن منيف في أعماله الروائية، بل يقوم بقطع الحوار ليلقي الضوء عليه كما هو واضح في الحوار السابق.

ويستمر اللقاء بصاحب السلطة الذي لا قيمة للأرض عنده، إلا إذا أدت مصالحة ورغباته الشخصية، ولكن الإنسان المنتمي لا يعتبر مصالحه الشخصية هدفا، وإنما الهدف هو المحافظة على الأرض التي تمثل رمز الهوية وبقاءها.

"ضحك الأمير في محاولة لان يسيطر على الجو وقال وهو يمسح أنفه اسمع يا ابن هذال ... إذا كان ما يشغلك الماء فابشر بدل البيار الثلاثة الموجودة نحفر لك مايه بير وإذا ما كان بهذا المكان بمكان غيره وفيك حيل وشيل هذه المسألة بسيطة لا تخف وبعد اليوم ما حدا يعطش وحنا ما نريد أن يبقى وادي العيون مربط الإبل والدواب الخويا يريدون أن يحفروا في الوادي وعندها يأتيكم الخير.

---

(١) منيف، عبد الرحمن: مدن الملح (التيه) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص٩٣.

قال ابن الراشد :

- والله يا طويل العمر إلي يهمني هو الماء.

قال متعب الهذال بحده ليقطع على هذه الروح المستسلمة :

اسمع يا ابن الراشد ما يهمنا الماء وأنت تعرف : أنا بالظهرة وحريمي ما ينزلن للعين وكل ما عندي بسيتين صغير يمكن أن اتركه وامشي الناس في الوادي يهمهم الماء وغير الماء يهمنا العرض الناموس وما نريد أحد فوقنا وما نريد هالكفار الخنازير صبح وعشية واليوم بهذا الشكل بعد كم يوم ما نعرف ويش يصير." (١)

لقد اكتسبت الأرض في أعمال عبد الرحمن منيف مضامينها ودلالاتها من موقف الشخصية ورؤيتها الخاصة وموقفها من الحياة ولعل ذلك يتطابق مع رؤية النابلسي للمكان بشكل عام. فهو يرى "أن المكان في الرواية ليس بما هو موجود في مسرح عمليات الرواية ولكنه بما يخدم شكل الرواية ومضمونها فالمكان يكون نظيفا مضاء حالما شهيا في الرواية التي تقدم لنا رؤية تفاؤلية وإن كان المكان في أصله قذرا مظلما مر المذاق، فالمكان عندما ينتقل من مداره الواقعي الحياتي العادي إلى مداره الفني الروائي أو الشعري يمد من خلال أنفاق متعددة نفسية وأيديولوجية وفنية لكي يصل أخيرا إلى المدار الفني الروائي أو المدار الفني الشعري أو المدار الفني التشكيلي ..." (٢)

ويبين النابلسي هذا الكلام بذكر مثال يتمثل بقيام أحد النقاد بالتساؤل عن ازدحام الناس أمام معرض فني يحتوي على لوحة ل "فان كوخ" تمثل شجرة، رغم وجود شجرة خارج المعرض الأمر الذي أثار الاستغراب في نفسية الناقد ولعل الإجابة على هذا التساؤل تكمن في أن الجمهور يرغب

(١) منيف، عبد الرحمن: مدن الملح (التيه) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص٣٧٧.
(٢) النابلسي، شاكر: جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٤، ص٩٢.

في أن يرى شجرة "فان كوخ" التي لا مثيل لها فقد كانت نتاج مدارات فنية ونفسية وأيديولوجية ذات خصوصية فريدة. (١)

لقد حملت الأرض مجموعة من الدلالات التي يود المبدع بيانها والتي تنطوي تحت منظومات دينية وسياسية واجتماعية، ويتجسد هذا من خلال التمثيل للقيمة بالأرض والتقابل بين القيم، فالقصر العالي الواسع الكبير للغني القوي القادر على الفعل والبيت الصغير الضيق الحقير للفقير.

من الملاحظ أن عنصر الوصف الذي يأتي الحديث عنه في فصل لاحق أسهم في تجسيد الأرض في ذاكرة الشخص الروائي، وكذلك القارئ، ولعل عبد الرحمن منيف في هذا الجانب يود تأكيد أهمية الأرض وترسيخها في الذاكرة بكل معالمها لتبقى حية في النفوس، ومن النماذج الوصفية التي تقدم بها لبيان أهمية الأرض ما استشهد به صالح الرشدان في حديثه عن شمران صاحب سوق الحلال "استراح صالح أكثر مما يفعل عادة ونتيجة إلحاح صاحب الحمار قام إلى عمله من جديد، لكن ظل يردد : "... لا يدوم سرور أي نعم لا يدوم سرور" وحاول أن ينتهي بسرعة ليعرف أي شيء حصل، إذ أدرك أن اليوم يختلف عن أيام غيره وأحس أيضا أن شمران بحاجة إليه الآن "أبو نمر وتد السوق وهو السراج والمطر" هكذا يصفه صالح إن كان راضيا عنه أما إذا لم يكن فإنه يصمت، لا يجيب عكس موقفه من أشخاص آخرين". (٢)

العلاقة بين الاثنين خاصة وغريبة كما أنها تختلف عن أية علاقة بين اثنين. "وإذا كانت لشمران ذاكرة تشبه الأرض والمطر فإن صالح لا يقل عنه". (٣)

---

(١) النابلسي، شاكر: جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٤، ص٩٣- ٩٢.
(٢) منيف، عبد الرحمن: مدن الملح (الأخدود) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص٣٦٨.
(٣) المصدر السابق ص٣٦٨ .

ولعل استحضار "الوتد" وتشبيه الذاكرة بالأرض دلالة على الثبات والانتماء إلى الأرض وهنا تكتسب الشخصية المنتمية لأرضها بعدا مجازيا عن طريق إضافة المعنى إليها ومن أمثلة ذلك تشبيه لون "زهوة أو الشيخة" بلون الأرض الرطبة التي تمثل الثبات والانتماء للأرض والتحكم بالسلطة وعدم الرضا عن أعمالها فهي "امرأة لكن ليست مثل أي من النساء : تتحرك مثل شبح تأتي وتذهب دون أن يحس بها أحد كثيرة الصمت، لكن إذا تكلمت لاذعة، وبعض الأحيان سليطة. لونها بلون الأرض الرطبة أو مثل عتمة أول المساء". (١)

وهنا يظهر الثبات والانتماء للأرض في شخصية شمران وصالح الرشدان والشيخة في رواية مدن الملح "الأخدود" على صورة مواقع جغرافية فالذاكرة واللون والمطر دليل الثبات وعدم التحول.

ويبدو الأمر جليا في الحديث عن الوتد المغروس في الأرض للدلالة على أن الأرض تحمل جانبا إيجابيا يبحث عنه الكاتب لما فيه من رمز للثبات والديمومة والصمود.

لقد وفق عبد الرحمن منيف في هذا الوصف فقد كان دقيقا ملامسا لمشاعر شخصياته ولعل أبرز ما يجسد ذلك حديثه عن الهواء من خلال شخصية الحكيم "قال الحكيم لنفسه وأطياف كثيرة تعبر مخيلته : "هواء موران يلقح وينضج الأشياء قبل أوانها، خاصة الفتيات" (٢)

إذاً تشكلت الأرض عند عبد الرحمن منيف وفقا لرؤيته الفكرية فهي تبدو إيجابية تارة وتبدو سلبية تارة أخرى إذ ظهرت عند بعض الشخصيات دليلا على طمس الهوية كالبلادة والنعاس والظلم والعداء في حين أن البعض نظر إليها كسجل للعزة والانتماء. ولا غرابة أن نرى حضور

---

(١) منيف، عبد الرحمن: مدن الملح (الأخدود) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص٣٦٨.
(٢) المصدر السابق ص١٥٨.

الأرض في الأعمال الروائية لدى عبد الرحمن منيف ابتداء من "النهايات" ومرورا "بمدن الملح" وانتهاء "بأرض السواد" لأنها رمز للأصالة والحياة والكبرياء وهي في الآن نفسه مصدر معاناة وقلق لكنها على الوجهتين كلتيهما تبقى مصدر تحد واعجاب تصنع الإنسان القوي القادر على مواجهة الصعاب والتحديات دون الشعور بملل أو كلل. وظهر ذلك جليا في رواية مدن الملح ومن خلال شخصية الحكيم صبحي المحملجي التي ليس لها هم إلا جمع المال لكن الأرض في حديثه كانت مصدر تحد ومقاومة فهو لم يستسلم "وقال في نفسه بنوع من التحدي : "الرجال هم الذين يخلقون الأماكن وهم الذين يتركون بصماتهم عليها إذا اشتغلت عقولهم وقلوبهم بهمّ عظيم، أما إذا أصبحوا يبحثون عن الماء والظل والحياة السهلة فإنهم سيمضون مثل الحشرات دون أن يخلفوا أثرا". (١)

"يتذكر الحكيم أنه قال بصوت عال وهو يبتسم من بين أسنانه :

- أنا وموران ... وهذا الزمان!

وضحك بفرح لأن كلامه كان شعرا خالصا! (٢)

"قال ذات يوم لمحمد عيد الذي حاول أن يقنعه بأساليب ملتوية وبدائية الاستغناء عن الاسم بحجة أن البيوت في موران وحران ومدن أخرى كثيرة لا تطلق عليها أية أسماء ... قال له وهو يكز على أسنانه :

- اسمع يا ابني وتعلم : الحكيم جاء إلى هذا المكان ليغير كل شيء " العقول الناس وحتى الأسماء ومن يعش ير!

---

(١) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (الأخدود) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص٢٢.
(٢) المصدر السابق ص٢٢ .

هذا التصميم الذي كان يميز مواقف الحكيم، ويجعله شديد الثقة بنفسه." (١) إن سلوكيات الشخصيات الروائية وتقلباتها النفسية هي نتيجة عوامل ورثتها من الأرض وهنا تقول الأرض كلمتها على كل شيء فإن لم يكن ذلك بطمس الهوية الحضارية فإن الأمر يبدو متحققا في الآثار التي يعاني منها الإنسان لفترات طويلة ولعل هذا التوجه يبدو جليا في منظومة السلوكيات النفسية التي تحيط ببعض الشخصيات التي جاءت من بعيد ولم يكن لهم ارتباط بالأرض التي يتحدث عنها عبد الرحمن منيف في أعماله.

ومن هذه الشخصيات أم حسني التي "بدت لها موران ضيقة ومعادية وبدا لها البيت مثل السجن وامتلأت أيامها ولياليها بالوحدة، أكثر مما كانت تحس بليالي المدينة. هل أخطأت حين وافقت على المجيء ؟ وهل تستطيع شيئا تجاه الصغار الذين حملوها من مكان إلى آخر؟" (٢)

أما محمد عيد عندما سار بعائلة الحكيم فإن موران بنظره غافية كابية مملوءة بالبلادة "بدت موران في عيني محمد عيد، كابية، غافية، مملوءة بالبلادة وهو يقطعها من شرقها إلى غربها ولم يستطع أن يخفي انفعاله أثناء الاجابة عن أسئلة غزوان إذ كان الشاب يسأل عن نوع السيارة ومتى اشتراها أبوه وكم حصان قوتها كان محمد يجيب بسرعة ودون اهتمام لأن الافكار التي راودته بأن يجتاز شوارع موران الرئيسية ببطء لكي يراه الناس". (٣)

"الصحراء كالمرأة بمقدار ما تبدو هادئة بسيطة لينة جميلة فإنها بحاجة إلى الفهم والتعاطف لأن لها وجوها لا حصر لها حين تغضب أو تجن تبدو وكأن ليس لها علاقة بما كانته من قبل وهي في الليل غيرها في النهار، وفي الشتاء تختلف عن الصيف وعن باقي الفصول، إنها أكثر

---

(١) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (الأخدود) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص٢٠.
(٢) المصدر السابق ص٣٣٤.
(٣) المصدر السابق ص٣٣.

من ذلك إنها هي ذاتها ولا تشبه نفسها أبدا، تتغير كل لحظة تتكون في كل لحظة عالم في مرحلة التكوين المستمر.

هكذا كان يردد هاملتون لنفسه لكي يبقى باستمرار شديد التنبه والحذر ولئلا يطمئن إلى قناعات خادعة ونهائية". (١)

من خلال النصوص السابقة نجد أنّ الذي لا ينتمي للأرض التي يعيش فيها يبقى في حيرة وصراع نفسي، وهذا ما حدث مع شخصيات عبد الرحمن منيف أيضا في رواية أرض السواد "أخذ ريتش يتذكر الأحداث التي مرت به منذ أن وصل إلى هذه المدينة العجيبة إنها مدينة لا تقرأ بسهولة ولا يحزر عليها تظل هادئة ساكنة فترة طويلة حتى يظن أنها فقدت كل حافز ولم يعد يعنيها شيء لكن حين تدوي الطلقات على أسوارها وتزحف نحوها الجموع تتذكر أن لها دورا وقادرة على فعل شيء يفاجئها نفسها ويفاجئ القادمين إليها وكأن جنونا أصابها". (٢)

والمتأمل في شخصية ماري زوجة ريتش يرى كم يكون الانتماء للأرض دورًا فاعلًا في حياة الإنسان، وكيف يتغير سلوكه بتغير نظرته للأرض التي يعيش فيها، "لقد تغيرت ماري إلى أقصى حد وخلال فترة قصيرة إذ بعد الأمراض الغامضة التي كانت تستبد بها في بغداد وتجعلها قلقة منهكة وبعض الأحيان شديدة التطير والكآبة ولا تكف عن مطالبة ريتش أن يلتمس من رؤسائه كي يختصروا فترة إقامته "في هذا المكان النائى والذي لا بد أن يؤدي إلى الموت أو على الأقل يسبب أمراضا لا شفاء منها" كان ريتش يحتال على الأمر بإغراقها بالهدايا والوعود معا ويضطر بعض الأحيان حين يبدو له وضعها وقد اقترب من درجة الخطر أن يسافر إلى أوروبا وخاصة انكلترا لقضاء إجازات طويلة ويحاول خلال تلك الاجازات أن يبدو إنسانا آخر : أكثر بساطة ومرحا علّها

---

(١) منيف، عبد الرحمن : مدن الملح (تقاسيم الليل والنهار) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص٧٣.
(٢) منيف، عبد الرحمن: أرض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج٢، ط٢، ٢٠٠٢، ص٥١.

تعوض ما فاتها في تلك (المدينة البعيدة) كما تسمي بغداد بإصرار لا ينفك يتزايد سنة بعد أخرى ولا تتردد أن تقول ذلك أمام عدد من الأصدقاء وبعض الزوار تعبيرا عما تكنه من كراهية لهذه المدينة. الآن في هذه الرحلة بدت ماري امرأة مختلفة ولقد ظهر ذلك بتصرفاتها وأيضا على شكلها لم تعد تغرق في تلك الروايات الخيالية والتي من شأنها أن توفر لها جوا مختلفا عن ذاك التي تعيشه كما طوت دواوين الشعر التي تعودت قراءتها قبل النوم. أما الزهور البرية التي أخذت تتفن بانتقائها وطريقة ترتيبها وكانت تشكلها بشعرها أو تصنع منها أطواقا تضعها في رقبتها فقد تراجع اهتمامها بها مقارنة بالآثار بعد أن اكتشفت ثم فتنت بهذا العالم الواسع والغنى. حتى التعب التي ظلت تشكو منه طوال الفترات السابقة وقد حاربه طبيب الباليوز إلى الدرجة القصوى رغم أنها تقضي وقتا طويلا في سريرها ولا تقوم بأي عمل مجهد وأعطاها من المقويات الكثير لعلها تسترد نشاطها وحيويتها هذا التعب زال تماما في هذه الرحلة، بل حلّ مكانه نشاط فياض وحيوية دافقة وقد تمثل ذلك بالنهوض مبكرا، وبشهية فائقة للأكل عدا عن المرح والضحكات التي كانت تدوي لأبسط الأمور ولأقل الكلمات إثارة ... أما السبب الحقيقي لهذا التغير والشبيه بالانقلاب فهو أن ماري وجدت الهواية التي تلائمها التي تحبها : الآثار والتي اكتشفتها فجأة دون تخطيط سابق ودون تصميم وكأنها خلقت لهواية من هذا النوع!" (١)

ومن الأمثلة التي تدل على الانتماء للأرض، الحديث الذي نقله حسون عن مجيء القنصل لقهوة مراد وماذا فعل سيفو والأسطه عواد عندما سمع الخبر إذ أن الانتماء للأرض (قهوة الشط) يغير من سلوكيات الإنسان "الأسطه عواد، الذي سمع خبر الزيارة قبل أن ينقلها إليه حسون قال بغيظ :

(١) منيف، عبد الرحمن : أرض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج٢، ط٢، ٢٠٠٢، ص٥٦-٥٧.

- الباليوز يسرح ويمرح هذي مو يمنا وانه ضيف مثل ما قال أبو حقي على العين والراس لكن اللي حارق فؤادي مراد ... توقف قليلا أخذ نفسا عميقا وأضاف
- قالوا لي أن مراد طوال الوقت اللي قعده القنصل بالقهوة، صار مثل الدجاجة اللي بطيزها بيضة : يقوقي، يصيح، يمش الميز نوبة ونوبة ثانية ويباوع على القنصل وعيونه ما مصدقة : "ألف هلا ومرحبا زارتنا البركة، هذا يوم مو مثل كل الأيام والقهوة راح تتذكر هذا اليوم لقيام الساعة ... يا ألف مرحبا ويا مية هلا" وهذا الزعطوط يهز راسه، ويضحك.
- مية نوبة قلت لك يا أبو نجم : مراد وقهوة مراد اغسل ايدك منهم قال الاسطة اسماعيل، لأنه وين أكو مخنث، طايح حظه، تلقاه هناك، ومراد يدلل، وعيني وآغاتي، وما يندرى شنو ورا هذا الدلال!
- الله العليم إذا ابن هالحرام طب قهوة الشط لا بد أسوي له مكسورة قال سيفو، وبعدها زعل أبو نجم، رضي، هاي يمه وهاي بكيفه". (١)

من خلال هذا النص نلاحظ قوة الإنسان المنتمي للأرض فسيفو سقى ماء من الطبقة الكادحة ولكن خطابه هذا يشابه خطاب الملك داود باشا ومقاومته للباليوز، ورجاله وعليه فالأرض تقدم دورا بالغ الأهمية في ميدان العمل الروائي فهي المنطلق الأول الذي تنطلق منه الشخصيات التي تسهم في نسج الحدث الروائي وتبقى عنصرا شاهدا على مواقف أفرادها سلبا وايجابا، وهذه السمات السلبية لا تنفي السمات الايجابية التي تميزت بها الأرض، لأن الملامح السيئة هي الوجه الآخر للملامح الحسنة والإنسان يتكون من هذين الوجهين على الإطلاق، وعبد الرحمن منيف بهذه السمات الحسنة والسيئة استطاع تجسيد الأرض تجسيدا إنسانيا موضوعيا وقد تجلت هذه السمات الإنسانية في روايات عبد الرحمن منيف لأنه انتقل من التعبير عن الأرض بالصيغة الفردية إلى

(١) منيف، عبد الرحمن، ارض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج٢، ط٢، ٢٠٠٢، ص٥٢١-٥٢٢.

التعبير عن الأرض بالصيغة الجماعية والأرض في الرواية بقدر ما فيها من جماعة متفاعلة مع محيطها فإنها تمثل الحياة خير تمثيل، وتعبر عنها وتدل عليها وتجعلها صاخبه في فضائها بشكل أعمق وأكثر ثراء وجمالا، وبستان الحاج صالح العلو في رواية أرض السواد خير دليل على ذلك.

وعبد الرحمن منيف بهذه السمات الحسنة والسيئة استطاع تجسيد الأرض تجسيدا إنسانيا موضوعيا وقد تجلت هذه السمات الإنسانية في روايتي مدن الملح وأرض السواد لأنه في هاتين الروايتين انتقل من التعبير عن الأرض بالصيغة الفردية إلى التعبير عن الأرض بالصيغة الجماعية.

والأرض في الرواية بقدر ما فيها من جماعة متفاعلة مع محيطها فإنها تمثل الحياة خير تمثيل وتعبر عنها، وتدل عليها وتجعلها صاخبة في فضائها بشكل أعمق وأكثر ثراء وجمالا.

وبستان الحاج صالح في رواية أرض السواد خير دليل على ذلك. إذا كان بستان توفيق المدرس له أثر واضح في علاج الحاج صالح وأسرته التي عانت بعد مقتل بدري "هذه التطورات شغلت قهوة الشط تماما، حتى أن الكثيرين وجهوا نقدا أقرب إلى اللوم، لا يعرف لمن، لأن أيا منهم لم يفكر بحلول كهذه من قبل، إذ لو وجدت لوفرت جهدا ووقتا، كما كان من شأنها أن تجنب أو تقلل الأحزان التي خيمت منذ مقتل بدري. ولما دار الحديث حول الأمر مرة وثانية في قهوة الشط، وقال الأسطة اسماعيل إن أهل بغداد أذكياء، لكن ينقصهم شيء لا يعرف بالضبط ما هو.

ذنون، الذي كان يقف صامتا رد بطريقة لا تخلو من عتاب :

- لو قايلين من قبل، الله يصلحكم، كان خلصنا من كل هالمشاكل! ولما بدا كلامه كان غامضا، أو لا يعرف الذين يسمعون وجه الخطأ، تابع موضحا :

- بستان الأعظمية يلعب فيه الخيال، وطول أيام السنة فارغ ... (١)

إذًا الأرض لها دور كبير في إسعاد الناس وحل مشاكلهم كما ورد في النص السابق ومن غير الممكن للأشخاص والأماكن أن يتغيروا إلى درجة يفقدون صلتهم بما كانوا عليه وهل يستطيع الإنسان أن يتكيف مع الأشياء الجديدة والأماكن الجديدة دون أن يفقد جزءا من ذاته؟ (٢)

أما الحاج صالح العلو فإنه لم يتغير فقد كان له اهتمام بالأزهار والشجر من قبل أما هذا السؤال فقد سأله عبد الرحمن منيف موضحا ومؤكدا على فكرة الانتماء التي لا بد للإنسان من التشبث والتمسك بها.

من خلال المقارنة بين الحاج صالح العلو في روايته (أرض السواد) والسلطان خزعل نجد أن البستان قد ساعد على شفاء الحاج صالح واخراجه من محنته أما السلطان خزعل فلم تخرجه (بادن بادن). المدينة الألمانية السياحية من حزنه ومرضه بل ساعدت على القضاء عليه "فقد قال السلطان لزيد :

- ثلاثة يعرفون راي زين : أنا وموران وأبو غزوان ... زفر. خرج الهواء من صدره ثقيلا حارقا واضطرب صوته" (٣)

وعلى هذا فالأرض للإنسان المنتمي لها مصدر أمن وراحة بل يستشعر حبها وتعلقها به.

ومن هنا نعود ونقول إن الإنسان تربطه بالأرض علاقة جدلية فثنائية الأرض والإنسان هي رمز البقاء والهوية والانتماء.

---

(١) منيف، عبد الرحمن، ارض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج٣، ط٢، ٢٠٠٢، ص٤٤.
(٢) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (التيه) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص١٣٧.
(٣) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (المنبت) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص٤٢.

ولا يخفى علينا أن عبد الرحمن منيف استخدم مكونات الأرض في توضيح فكرة الانتماء للأرض ومنها الحيوانات وخصوصا الخيل.

لقد لعبت الخيل في أعمال عبد الرحمن منيف دورا مهما ففي مدن الملح (المنبت) مثلا عندما انتقلت إلى (بادن بادن) مرضت وأخذت تسقط الواحدة تلو الأخرى، ومات (غصن البان) بعد موت السلطان. (١)

أما الخيل في أرض السواد فقد كانت سببا من أسباب شفاء الحاج صالح العلو وسميت الخيول بأسماء تبعث على التفاؤل "عايد". (٢)

وكذلك الأشجار والزهور كانت في رواية عبد الرحمن منيف سببا للتفاؤل والسعادة لدى الحاج صالح العلو أما ماري زوجة القنصل ريتش فلم تساعدها على الخروج من بؤسها وتعاستها. (٣)

إن الانتماء الروائي إلى أرض أو قومية أو مبدأ ما أثر في تشكيل رؤيته. ولعل هذا الانتماء يتضح حين يميل الكاتب إلى المحلية، ذلك إن المحلية "قاعدة الانطلاق لتقديم رؤية انسانية، وهي ليست نقيضا للانتماء الأوسع، بل الطريق الطبيعي إليه" (٤) وبهذا المعنى يقول عبد الرحمن منيف : "كلما كانت الرواية محلية، كانت عالمية، وبهذا المعنى، يجب أن يحاول الراوي أن يستمد مادته الأولية من الواقع الموجود. واعتقد أن الواقع العربي من الكثافة والغزارة بحيث يقدم مادة أولية لا يستهان بها". (٥)

يتطلب الانتماء نوعا من القيام بالواجب وعلى الروائي النهوض بواجبه إزاء انتمائه هذا.

---

(١) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (المنبت) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص٢٨٤.
(٢) منيف، عبد الرحمن، ارض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج٣، ط٢، ٢٠٠٢، ص٤٣.
(٣) المصدر السابق ص٤٣ .
(٤) سيف، وليد، جريدة الرأي الأردنية، ١٩٨٣/٩/٢١، حوار مع الدكتور سيف .
(٥) مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد٦، ص٧.

إن انتماء عبد الرحمن منيف للأمة العربية والوطن العربي أملى عليه توجها جديدا ذلك أن الأمة والوطن يمران بمرحلة مظلمة وبسبب هذه الظلمة لا بد للروائي أن يحاول تبديد هذه الظلمة. إن هذه الرؤية الحزينة في أعمال عبد الرحمن منيف كانت بمثابة الإصبع الذي يشير إلى الجرح ولا يقف عند الجرح وإنما يحاول مداواته فالبطل في مدن الملح (التيه) إنما هو نتاج هذه المرحلة ولقد كشف عبد الرحمن منيف من خلاله عن مجموع الظروف والأحوال والمسببات التي أوصلت البطل إلى نهاية فاجعة في سبيل تشخيص المرض ومن ثم البدء بالعلاج وهذا يبدو واضحا أيضا في الأخدود والمنبت وأرض السواد.

من خلال ما تقدم نلاحظ أن الأرض مصدر العزة والقوة إذا تماهت الأرواح معها،وستبقى الهوية ثابتة، لا تهزها المتغيرات، وبثباتها يعيش الإنسان بعزة وكرامة يسعى إلى التقدم والتطور، وبضعفها تضعف القدرة على العمل والتّقدم، ويصبح الإنسان عالة على غيره، وتضيع مقدرات الأرض (رمز عزة).

الفصل الثانـي

الأرض والسلطة

الفصل الثاني

الأرض والسلطة وأبعادها الدلالية والرمزية

تمثل الأرض عنصرا أساسيا في حياة الإنسان فهو محاصر بعناصرها ولا بد له أن يدخل معها حرب بقاء واستمرار، فالإنسان "يصارع الفناء يكافح من أجل البقاء، يغالب الجوع، يتقي البرد، وحياته كلها حرب مع الموت، ولكن انتصاره مؤقت، ثم يدحره الزمان الذي ما انفك يعمل في جسده إتلافا" (١) ويتجلى صراع الإنسان مع الأرض في رواية (مدن الملح) ويبدو صراعه هنا في شكلين متباينين فالشكل الأول وهو ما تبدو فيه الأرض فاعلة وقاهرة للإنسان كما في مدن الملح (التيه والأخدود والمنبت) أما الشكل الآخر فتترجح فيه الأرض بين الانتصار والهزيمة كما في (أرض السواد).

ويتشكل هذا الصراع عبر عنصر مكاني مختلف في الروايتين فحران وموران وبادن بادن هي مسرح الأحداث في رواية (مدن الملح) وهي بالتالي موطن العذاب والألم والتحدي، ولا تبقى (حران، موران، بادن بادن) مجرد منطقة تعاني الجوع والقحط وإنما هي "رمز الأرض العربية التي يتخلى عنها أولئك الذين يغتنون بالنفط بدل من أن يغتنوا بالأرض ويمدوا جذورهم في الأرض" (٢) إن اختيار الروائي لهذه الأسماء يذكرنا ضمنا بمدى التحدي بين الأرض والإنسان تستخدم الأرض سلاحها الحاد في وادي العيون ومنذ الكلمة الأولى في رواية مدن الملح (التيه) نفاجأ به "إنه وادي العيون ... فجأة، وسط الصحراء القاسية العنيدة، تنبثق هذه البقعة الخضراء، وكأنها انفجرت من باطن الأرض أو سقطت من السماء، فهي تختلف عن كل ما حولها، أو بالأحرى ليس بينها وبين ما حولها أية صلة، حتى ليحار الإنسان وينبهر فيندفع إلى التساؤل ثم العجب (كيف انفجرت المياه

---

(١) الحاج شاهين، سمير: لحظة الأبدية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١، ص١٦.
(٢) فرمان، غالب طعمة: عبد الرحمن منيف والإنسان العربي المقهور، مجلة الأدب البيروتية، عدد٦، ١٩٨٠.

والخضرة في مكان مثل هذا؟) لكن هذا العجب يزول تدريجيا ليحل مكانه نوع من الإكبار الغامض ثم التأمل. إنها حالة من الحالات القليلة التي تعبر فيها الطبيعة عن عبقريتها وجموحها، وتبقى هكذا عصية على أي تفسير." (١)

وتنتقل رمزية وادي العيون إذ يصبح مكان إنقاذ من الموت في هذه الصحراء الغادرة الملعونة في نظر أهل القوافل التي تصل وادي العيون "وادي العيون قد يبدو بنظر الذين يسكنون فيه مألوفا، وبعض الأحيان لا يثير تساؤلات كبيرة، لأن هؤلاء تعودوا أن يروا أشجار النخيل تملأ الوادي، وتعودوا أن يروا الينابيع تتفجر في أمكنة عديدة خلال فصل الشتاء ثم بداية الربيع إلا أنهم رغم العادة، يحسون أن قدرة مباركة هي التي ترعاهم وتيسر لهم الحياة. أما إذا جاءت القوافل، وقد جللتها أكوام الغبار وهدها التعب والعطش وأخذت تجد في السير، خاصة في المرحلة الأخيرة، لتصل إلى وادي العيون بأسرع وقت فكانت القافلة كلها تمتلئ نشوة أقرب إلى الرعونة، لكنها لا تلبث أن تسيطر على اندفاعها حين ترى الماء، متذرعة بحجة أن الذي خلق الدنيا والبشر خلق في نفس الوقت وادي العيون في هذا المكان بالذات، ليكون إنقاذا من الموت في هذه الصحراء الغادرة الملعونة." (٢)

بعد أن جاء الأمريكيون إلى الوادي بحماية الأمير والدولة وبدأوا العمل في وادي العيون فقد أصبح مصدر خوف لأهله "كان الناس في الوادي مشغولين خائفين وهم يراقبون تلك الآلات المجنونة تقتلع الأشجار وتدك الأرض وتقلب كل ما فوقها، ولما تعبوا من المراقبة ورأوا كل شيء بعيونهم يتهدم وينتهي، تلفتوا نظر بعضهم في وجوه بعض مستغربين." (٣)

---

(١) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (التيه) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص٩.
(٢) المصدر السابق ص٩.
(٣) المصدر السابق ص١١٣.

القهر الذي برز وزاد من مأساة أبناء الوادي كان مصدره السلطة السياسية ففي الوقت الذي تصب فيه الأرض (الصحراء) جام غضبها وهجومها على الإنسان تقف الحكومة موقفا سلبيًا من أهل وادي العيون حين لم تف بوعدها للأهالي وتؤمن لهم الحياة الكريمة. وعلى الرغم من هذا الضغط فإن أهل وادي العيون يبقى لهم موقفهم الحازم الذي تترجمه (أم الخوش) بإصرارها على البقاء وعدم المغادرة ولكنها لم تستمر في موقفها بسبب الموت.

"في جو من الغيظ والتحدي والحزن والغضب وعشرات المشاعر الأخرى التي سيطرت على الناس في الوادي، كانت أم الخوش الإنسان الوحيد الذي لا يخضع لأية أوامر، ولا يوافق على كل ما يجري" (١) ولكن "في وقت لا يدرى متى، في صراع النور والظلمة، هدأ صوت العجوز لم يهدأ دفعة واحدة أو بشكل مفاجئ وإنما تباطأ وارتخى ثم اشتبك باللهاة تماما، فأصبح مجرد نبرة تشبه قطعة من الدهن تذوب شيئا بعد شيء فلما غاب نهائيا قال الذين يساهرون النجوم (النوم راحة ... وقد نامت العجوز)." (٢)

والعجب أن الشخصية المنتمية لأرضها تكون سببا لتغيير الواقع المعيش مع السلطة كما جاء في رواية مدن الملح (التيه) من مشهد موت العجوز (أم الخوش) "وإذا كان قد تقرر أن تغادر القافلة وادي العيون قبل الظهر، فقد أصبح موت العجوز سببا كافيا لأن تبقى، وببقاء القافلة يوما إضافيا، كان أمل يراود الجميع أن يحصل ذلك اليوم ما يغير هذا القرار، ويجعل كل شيء لإعادة النظر. أما جنود البادية فقد ظلوا بعيدين، ورفضوا الدخول في أية مناقشة، أو الإجابة عن أية أسئلة تطرح. تظاهروا أنهم لم يروا شيئا، لكن كانوا مصممين أيضا أن لا يسمحوا بالبقاء سوى ذلك اليوم." (٣)

---

(١) الريحاني، نجوى: الحلم والهزيمة في روايات عبد الرحمن منيف، مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد١١١، عدد٨، ١٩٩٥، ص٣٠٧.
(٢) منيف، عبد الرحمن: مدن الملح (التيه) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص١٢٢.
(٣) المصدر السابق ص١٢٣.

هذه هي الشخصية المنتمية تكون أملا لغيرها في تغيير الواقع وتغيير سلطتها ومواقفها. لقد انتصرت السلطة في رواية مدن الملح على إرادة الشعب وكان انتصارهم موجعا لأهل وادي العيون فاتجهوا إلى أرض أخرى توفر لهم الأمن والراحة، ويصف عبد الرحمن منيف منظر الرحيل وصفا حزينا قاسيا يبعث على اليأس لكن الشخصية المنتمية لأرضها تبقى مصرة على موقفها حتى لو لم يتحقق لها ما تريد. يقول في وصف الرحيل : "في الظلمة الزرقاء الناصلة، ومع هبات ريح خفيفة منعشة، كانوا بصمت، قد انتهوا من استعدادهم للرحيل. أما حين تركوا وادي العيون، أو بكلمات أدق، حين أجبروا على تركه، بعد شروق الشمس بقليل فقد كان بين الراحلين عائلة متعب الهذال." (١)

ها هو بريق الأمل يطل على الإنسان المنتمي لأرضه فمع الظلمة الزرقاء تأتي ريح خفيفة منعشة لتبث الأمل والمقاومة في صدور من ينتمي لأرضه.

إن حالة الاضطهاد في مجتمع عبد الرحمن منيف ليست بجديدة فالدارس لرواية مدن الملح المكتوبة في الثمانينات، وأرض السواد المكتوبة في عام ألفين وثلاثة يلاحظ أن القمع والعنف متعدد الأشكال فقد أصبح حالة عارمة تجتاح الوطن العربي، إذ لم يعد السجن مجرد أربعة جدران، والجلاد، أو حالة من التعذيب، بل أصبح يهدف إلى خوف الإنسان ورعبه وهذا ما يريده الحاكم، أن يصبح الإنسان دائما سجينا. وما شخصية متعب الهذال وشمران في رواية مدن الملح وسيفو وبدري وأهل المحلة في رواية أرض السواد إلا نماذج حية تعكس رسالة السجون وامتدادها كملمح مكاني مميز في أقطار الوطن العربي. (٢)

---

(١) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (التيه) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص١٢٣.
(٢) ولعة، صالح، المثقف في روايات منيف، جريدة العرب اليوم، عدد٢٤٢٨، ص١٧.

إن روايتي مدن الملح وأرض السواد شأنهما شأن الأعمال الروائية الأخرى التي أبرزت دور المثقف العربي القديم بقدم الأرض وتطورها التاريخي ويبرز حالة المثقف من خلال ادراك شبكة العلاقات بين الإنسان والأرض فمثقفوا الجماهير لا يتشكلون من خلال الشرط الاجتماعي فحسب، بل تسهم الطبيعة في كل ذلك، فالفيضان وما مثله من عامل سلبي على النواحي الاقتصادية والسياسية والفنية ظل يضع شخصية (ذا النون) الفنان العراقي المبدع في اشكالية نفسية يهيمن عليها القلق والاحباط، نظرا لافتقارها الدعم من قبل الدولة الحاكمة، وحالة القلق لم تقف عند المستوى الفردي لذي النون، بل ظهر إلى جانب ذلك قلق المجتمع الإنساني عليه من خلال شريحة الناس البسطاء أمثال (سيفو المحمود (والأسطه اسماعيل والأسطه عواد)) ولعل هذا التعاطف الشعبي يبدو جليا من خلال بروز المشاعر الإنسانية التي تزول معها المصائب والأنات ولو لفترات زمنية محدودة. (١)

الصراع بين السلطة والمثقف العربي الشعبي صراع مستمر لا تحده الأرض ما دامت الاهتمامات والأولويات الإنسانية غير متجانسة وموحدة، وهذا الأمر يتنافى إلى درجة الاعتقاد كما يرى ذا النون بقوله : "كانت بغداد وراح تظل صوبين، واحد للمسعدين والثاني لغيرهم." (٢)

من خلال شخصية ذا النون يظهر أن صراع المثقف مع السلطة مستمر وما دام لا يوجد قواسم مشتركة تجمع الطرفين اللذين يخاف أحدهما أن يتنازل عن مكتسباته، فالمثقف إن اتفق مع السلطة يظهر في نظر المجتمع عنصرا وصوليا أما إذا كان التنازل من جانب السلطة فتصور الحالة من منظور المجتمع على أنها حالة ضعف واستسلام واستكانة مما ينعكس سلبا على توجهات السلطة الحاكمة مستقبلا وهكذا تبدو العلاقة بين السلطة والمثقفين قلقة تتأرجح بين مدّ

(١) منيف، عبد الرحمن، ارض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج٣، ط٢، ٢٠٠٢، ص١٤٠.
(٢) المصدر السابق ص٨٣.

وجزر انطلاقا من مقولة : "إن الحرب ما انتهت ووالينا مثل الجمل يصبر يتحمل، لكنه حقود وأبد ما ينسى." (١)

من خلال هذه المقولة نلاحظ تعلق عبد الرحمن منيف بالأرض ومكوناتها التي يدعو السلطة والمثقفين والبسطاء للمحافظة عليها في وجه المحتل.

يتناول عبد الرحمن منيف في روايتي مدن الملح وأرض السواد مسألة الوجود الإنساني وعلاقته بالأرض، ولا سيما وجود المثقف العربي الذي لا يقف خطره على السلطة المحلية بل يتعداه إلى غير ذلك في كونه يشكل خطرا على المشروع الاستثماري على الأرض العربية، فقد تشكل توجه خالد إلى الهند قلقا في نفس القنصل البريطاني (ريتش) الذي لم يقصر في كتابة رسالة إلى وزارة المستعمرات في الهند لمعرفة مصير الشيخ الصوفي (سلطان عبد الله) الذي كان يتردد عليه الشيخ خالد باستمرار." (٢)

وفي هذا المنحى يلقي عبد الرحمن منيف الضوء لقمع حركات اليقظة العربية، وأن وجودها يشكل خطرا على المصالح الاستعمارية في الأرض العربية.

تقدم روايتي مدن الملح وأرض السواد تصورا آخرا للمثقف العربي ويبدو هذا الشكل من الشخصيات كما يصوره عبد الرحمن منيف إنسانا لاهثا وراء مصالحه الشخصية؛ يجعل من شخصيته وثقافته الإنسانية ظلا للنظام فالشعراء الذين يتناولهم روائيا يظهرون بمظهر المتكسب لا يملكون إرادة داخلية فينظمون قصائد لصالح النظام ويحصلون على الهبات والعطايا، فهم عند داود باشا "الذين يبشرون بالدولة." (٣)

---

(١) منيف، عبد الرحمن، ارض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج٣، ط٢، ٢٠٠٢، ص٨٤.
(٢) المصدر السابق ص١٨٢.
(٣) المصدر السابق ص١٨٧.

وكذلك الحال بالنسبة للصحفي سمير الذي أحضره الدكتور صبحي محملجي كي يكتب كتابا عن انجازات السلطان خزعل في رواية مدن الملح حيث يبين النص الآتي مدى سعي هذه الشخصية وراء مصالحها الشخصية:

"وهذا الكتاب يا صاحب الجلالة ليس مجرد تاريخ، إنه سيرة حياة رجل عظيم ويجب أن يتضمن مجموعة من الصور : صور الطفولة وصور الصبا والشباب، وحتى الوقت الحاضر، ويجب أن يوزع على نطاق واسع، على الأفراد والمؤسسات، وأن يترجم إلى عدة لغات. وهكذا اقتنع السلطان، وظل الحكيم محتفظا بالمفاجأة الأخيرة : - سمير قيصر، يا صاحب الجلالة سيتولى صياغة الكتاب، فقط تحتاج منكم يا صاحب الجلالة، أن تخصصوا لنا وقتا كافيا لكي تحدثونا عن طفولتكم وعن أيام الشباب، أما ما تبقى فسوف نتولى أمره أنا وسمير ولا بد أن يرضيكم ويرضي كل من سيطلع عليه!" (١)

إذاً ظهر مدى تزلف هذه الشخصية للوصول إلى مصالحها الشخصية على حساب مبادئها ومعتقداتها.

ولم تبرز مدن الملح الشخصيات الدينية بصورة سلبية مثل رواية أرض السواد التي أظهرت الشخصيات الدينية شخصيات اتخذت من الدين وسيلة للكسب السريع وهذا ما تمثله شخصية (الملا حمادي) التي كانت مثالا حيا للسخرية الاجتماعية من أفراد المجتمع، ولا سيما من يتردد على قهوة الشط فهذا الإنسان الذي يجب عليه زرع التقوى في نفوس الناس، وتنبيه المجتمع لما يحيط بهم من خطر، يظهر في نفوس من حوله إنسانا متكسبا يسيطر على أموال الزكاة والصدقات

---

(١) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (الأخدود) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص.

وحقوق الفقراء (١) يداهن السلطة السياسية ساعيا وراء مصالحة الشخصية الذاتية فما يسمع بحضور الوالي لزيارات تفقدية حتى يسرع لارتداء أجمل الثياب ويعد الخطب مرحبا بقدوم الباشا. (٢)

ولا يكتفي بذلك بل يتدخل في شؤون الآخرين ساخرا مستهجنا مما يؤدي إلى خلق حالة من المشاحنات بين السلطة الدينية وأفراد المجتمع البسطاء، (فسيفو المحمود) الذي ترك عمله علق عليه الملا بأنه إنسان ضعيف دينيا لا يجيد إلا نقل الماء وسقاية الناس. (٣) مع أن الدور الذي لعبه الملا حمادي يدل على ضعف السلطة الدينية، إما لرقة التدين أو عدم التعمق بفهم المسائل الدينية.

ومن الملاحظ أن السلطة الدينية في رواية أرض السواد ظهرت بشكل واضح أكثر من رواية مدن الملح والسلطة الدينية في رواية مدن الملح الممثل لها كان الحاكم والسلطان عند حديثه مع متعب الهذال ولن تتمثل بشخصية معينة.

ومن القضايا التي أسهم عبد الرحمن منيف في بيانها قضية اللقاء الحضاري فقد أشار إلى هذا اللقاء في مدن الملح (التيه) من خلال الشركة التي انشئت لاستخراج النفط، وكانت شخصية هاملتون وفليب وتعاونهم مع الأمير لوقف التمرد واضح، ودليل على سياسة الاستعمار والسيطرة على خيرات البلاد. (٤)

---

(١) منيف، عبد الرحمن، ارض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج٢، ط٢، ٢٠٠٢، ص٢٤.
(٢) المصدر السابق ص٣٠٤.
(٣) المصدر السابق ص١٠.
(٤) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (التيه) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص٥٧٢.

ونلمس ذلك في أرض السواد فهي تعبير حقيقي لعرض قضية الصراع الحضاري من الجوانب السياسية والثقافية، وقد تميز عبد الرحمن منيف بجانب مهم فهو ينقل إلينا الغرب بأساليبه الاستعمارية الحديثة للشرق من خلال الدبلوماسي ريتش ممثل القنصلية البريطانية في العراق.

والملاحظ من خلال دور الدبلوماسي ريتش إبداع عبد الرحمن منيف في توظيف سيمائية العنوان فتحديد مصطلح الشرق كشف المساحة الجغرافية التي يدخلها في الصراع ولا يكتفي عبد الرحمن منيف بتحديد هذا الجزء المهم من الشرق (العراق) بل يتوسع في ذكر دقائق الأرض وأجزائها.(١)

ومن الملاحظ أيضا تصوير العمل الروائي لبغداد في مسرح العمل الروائي ومناطقها الجغرافية (الكرخ، الرصافة)، وأسماء الأحياء الشعبية التي احتضنت الأحداث، ثم ينتقل عبد الرحمن منيف إلى الشمال عبر رحلة استكشاف جغرافية، ويصور لنا (الموصل، وأربيل، وكركوك، والسليمانية) بكل تفصيلاتها، ومن خلال هذا الوصف نخلص إلى أن الشرق الذي تناوله عبد الرحمن منيف روائيا هنا هو (بغداد) بإنسانها وأرضها دون أن ينفي ذلك أن يكون العراق نموذجا لمجيء الآخر إلى الشرق العربي (٢).

تعد المادية والحضارية من أبرز المقومات التي يجسدها عبد الرحمن منيف في وصفه لمسألة اللقاء الحضاري بين الشرق والغرب إذ يتجسد ذلك في مبنى الحكم الذي يصنع القرار السياسي. ومن الملاحظ أن عبد الرحمن منيف يوظف الأرض بقدرة فنية عالية للتعبير عن المسافة التي تفصل بين الثقافات فتكتسب الأرض أكثر من معنى، تبعا لما تمثله، فقد بدت السراي – وفق

---

(١) منيف، عبد الرحمن: ارض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج١، ط٢، ٢٠٠٢، ص٣٨٤.
(٢) المصدر السابق، ج٢،

وصف عبد الرحمن منيف في البداية – مبنى غير منظم يحرسه جنود غير مدربين ولعل هذا الطرح الذي قدمه ليبين حالة الضعف والهوان التي كانت في أوصال الدولة، فتبدو السراي مستباحة، ففي الوقت الذي وصل إليه ريتش كما يقول الراوي : "الباليوز مثل عادته دائما، حاضر بل كثيف الحضور، لكن ضمن رصانة صارمة لا يتنازل عنها، ولا يتهاون بأي من شروطها ومقتضياتها فهو يرفض بعناية كبيرة كل ما يحصل : كيف يعبر الناس عن فرحهم واستقبالهم للوالي ماذا يقولون وكيف يتصرفون حتى الانفعالات الصغيرة التي تظهر هنا وهناك يرصدها بدقة يفعل ذلك بهدوء وصبر، ويتقصى دون تعب أو ملل كل ما يحصل ... " (١)

إن هذا النص يشير فيه عبد الرحمن منيف إلى قوة الغرب وتقدمه من جهة وانعدام الارادة عند الشرقيين من جهة أخرى وهذا ما ظهر على لسان الترجمان بقوله مشعرا صفوت قرداغ ببعد الموعد الرسمي "إن سعادة القنصل يرغب بلقاء الباشا في وقت مبكر لكي يقدم تهانيه بمناسبات عديدة : تسلم ولاية بغداد، ثم التهنئة برمضان المبارك، وأيضا عيد الفطر السعيد." (٢)

ومن المظاهر التي يظهر فيها الصراع بين الإنسان الشرقي مع الغرب تشابك المصالح وتعقدها، إذ يحاول داود باشا القضاء على الذين يمدون يد العون للاستعمار متخذين من مصالحهم الشخصية سببا لذلك، وقد توافق ذلك مع قيام الوالي بسجنهم حتى يفرق هؤلاء بين ضيافة السراي والقنصلية ومن الملاحظ أن عبد الرحمن منيف ينبه أن ويلات الاستعمار وتغلغله في الأراضي العربية يعود إلى ضعف الإحساس في الوطنية الصادقة، وهذا بحاجة إلى يقظة الحسّ الجماعي الذي بدأ يضعف أمام الاستعمار الغربي ومن الأمثلة عليه قهوة مراد وما عمله عند زيارة القنصل لديه. لا يقتصر صراع الشرق مع الآخر عند حدود الخطابات القولية التي تتلفظ بها أجهزة السلطة

---

(١) منيف، عبد الرحمن، ارض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج١، ط٢، ٢٠٠٢، ص٢٥٨.
(٢) المرجع السابق ص٩٨.

الرسمية بل يستخدم الغرب في صراعه مع المفردات المادية ويحاول فرض ثقافته وإزالة ثقافة الآخر؛ يقينا منه بأن الثقافة مسيطر عليها حين تتراجع ثقافة المضيف ويظهر ذلك من خلال الاحتفالات الرسمية التي يعرضها الانجليز في شوارع بغداد من فترة إلى أخرى فيظهر الجنود الانجليز مرتبين بثيابهم ترافقهم الموسيقى، وفي هذه اللوحة الاستعراضية اشارة واضحة لمرحلة جديدة تلفها الصعوبة.

"مع بداية حملة الجنوب تزايد ظهور ريتش، وكأنه يتعمد أن يراه الناس، وأن يتحدثوا عن تحركاته وأخباره. فإذا لم يظهر في السوق التجاري، عند بائعي السجاد أو الكتب القديمة، لا بد أن يظهر في إحدى زياراته للمعالم الأثرية، أو وهو في طريقة إلى الصيد. أما حين اشتدت الحرارة وزادت عن الحد الذي يطيقه أو يحتمله أجنبي جاء من الشمال البارد، فقد أصبحت أكثر جولات ريتش بعد أن ينقضي النهار، عند الغروب وأول المساء كان يمتطي أحد خيوله، ومعه عدد قليل من حرسه، وينطلق إلى ضفة النهر. كان هناك يمارس رياضته. وبعض الأحيان يطيل مشاويره وكأنه يكتشف ما حوله بعيون جديدة. وزيادة في التأكيد على حضوره، لم يتردد في القيام في بعض الجولات على قدميه. صحيح أن أغلب هذه الجولات ظلّت في محيط الباليوز، لكن كان يرافقها الكثير من الطرافة والجدة، إذ يصطحب عددا من كلابه المفضلة، وهي مختلفة عن الكلاب الذي يعرفها الناس : أكبر حجما من الكلاب العادية، أو أنها أصغر منها بكثير وهي مدربة، مطيعة، تتصرف وفقا لما يصدره لها من أوامر، وكأنها تفهم كل ما يقال لها ... أما وهو يوالي مداعبة هذه الكلاب أو تدريبها فقد أثار اهتمام الكبار والصغار. كان يحمل معه عددا من الكرات، ولا يتردد بعض الأحيان في التقاط حجر أو عصا من الأرض وبمكر لا يخفى، وبقوة، كان يقذف الكرة أو

العصا فتنطلق الكلاب لالتقاطها وإعادتها إليه. الكبار الذين رأوا ذلك لم يخفوا دهشتهم من ذكاء الكلاب وطاعتها." (١)

من خلال هذا النص يظهر الصراع بين الإنسان الشرقي والإنسان الغربي، ويحاول عبد الرحمن منيف إلقاء الضوء على الفرق بين مستوى الثقافات بينهما وكيف يحاول الغربي استغلال أي شيء في حوزته لتغير الشرق حتى لو كان من خلال الحيوانات التي يألفها ويظهر عبد الرحمن منيف ضعف الإنسان الشرقي واستغرابه لكل شيء غربي.

ويعلل الغرب مرحلة الجهل التي تؤخر المجتمع الشرقي بالأساسيات التي ينطلق منها الدين الإسلامي، وهذا ما يظهر واضحا على لسان القنصل نفسه بقوله أن : "... الأمة لا تتقدم بالقوة أو الإكراه كما لا تتقدم بجهود فرد مها كان، ومع ذلك فإن للإيرانيين كفاية أوسع من الأتراك، ولو كانت اسطنبول عاصمتهم لتمكنوا منذ أمد بعيد من الوقوف في صف الأمم الأوروبية ذلك لأن الدين الإسلامي هو الذي يحول دون الرقي ... ويعيق التقدم ويشجع على الجمود ..." (٢)

وهذا النص يدل على رسالة الغرب الحقيقية التي تهدف إلى تغريب الإنسان الشرقي الذي يمثل له الدين سدا منيعا يحميه من الآخر وهذا ما يبدو صراحة على لسان القنصل أثناء زيارته للشمال فقد بدت صورة محمود باشا له تمثل خطأً كبيرا مرده كما يرى "ضعفه واحترامه للأتراك الاحترام الكلي، المنبعث في الحقيقة من الشعور الديني ..." (٣)

(١) منيف، عبد الرحمن، ارض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج٢، ط٢، ٢٠٠٢، ص٥١٤- ٥١٥.

(٢) منيف، عبد الرحمن، ارض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج٣، ط٢، ٢٠٠٢، ص١٩٥.
(٢) المصدر السابق ص١٩٥.
(٣) المصدر السابق، ج١، ص٢٥٩.

يصور عبد الرحمن منيف الغرب بهذه الصورة ليبين كيف يسعى إلى تصدير ثقافته وتقنياته إلى الشرق لخدمة أغراضه الخاصة؛ من أجل إحباط كل مشروع يسعى للنهضة والتقدم في الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية.

كما يجسد لنا عبد الرحمن منيف صورة من صور الضعف التي تظهر على ملامح دولة الخلافة الإسلامية الذي بدا نفوذ المستعمر يدخل إلى مراكز صنع القرار فيها، وما خوف ريتش على رجاله المقيمين داخل السراي الذين ينقلون تحركات الدولة إلا دليل على ذلك. (١)

هذه الحالة الواردة في النص تشكل جانبا مريبا للمستعمر الذي يرى في الوادي الجديد نوعا من تعطيل المشاريع والرغبات الإنجليزية في المنطقة، قد ظهر هذا الاعتراف واضحا على لسان ريتش بقوله إن : "هذا الجورجي بمقدار ما يبدو طيبا وبسيطا، فهو شديد الخطر، تماما كالمياه الساكنة إذ لا يدرك عمقها ولا يعرف ماذا تخبئ في باطنها." (٢)

إن الأرض لدى عبد الرحمن منيف لم تقتصر على الجوانب العامة في تشكيل الدولة، بل نجده يقدم نماذج متعددة من الصراع الذي توظف فيه؛ لتحمل مجموعة من الدلالات السياسية والاقتصادية فمثلا تدخل الصحراء العربية بكل محتوياتها ورموزها في معركة الصراع الحضاري، فالغزلان الصحراوية التي أرسلها الباشا للقنصلية وما تحمله من وداعة ورقة هي دليل ثابت على أن العراق متيقظ بكل أجناسه وعناصره التي تختلف تبعا للأيديولوجيات الفكرية ويقف سدا منيعا في وجه المستعمر. (٣)

---

(١) منيف، عبد الرحمن، رض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج١، ط٢، ٢٠٠٢، ص٢٥٩.
(٢) انظر المصدر السابق ص٢٩٧.
(٣) انظر المصدر السابق ص ٢٩٥.

ولعل في تقديم الغزلان حالة من الصراع الذي يوظف فيه الإنسان كل ما تقدمه الطبيعة من مكونات حيوانية ونباتية فتقف الجمال مقابل الفيلة القادمة من الغرب. تساندها الجمال وهذا ما ورد صراحة على لسان داود باشا الذي يحاول استجذاب الطبيعة بكل عناصرها فيصبح لديه الجمل والمخلوقات الحيوانية التي تعيش على أرض العراق نموذجا لصورة متكاملة تتوحد فيها الطبيعة مع الإنسان لإثبات الذات وتأكيد الهوية.(١)

إن الشرق الذي يتناوله عبد الرحمن منيف سرعان ما يتبدل، ويدرك حجم الخطر الذي يهدد وطنهم وفي سبيل ذلك يظهرون نسيجا متكاملا يحدث في نفس الآخر شعورا متفاجئا، وفي وصف هذه الحالة يقول ريتش : "عجيب أمر أهل بغداد يحبون بإسراف، ويكرهون بإسراف، ولا أعرف لماذا تغيروا بهذا المقدار، خلال هذه الفترة القصيرة." (٢)

وهذا التغير المفاجئ يحدث في نفوس الغرب حالة غير مسبوقة، فعين ريتش أصابها الإعياء الشديد تجاه المشروع الوحدوي الذي أصاب قادة الشمال، ولم يقتصر تصوير الشرق بعيون الغرب على أنهم مجموعة من النفوس المتناقضة المرتابة، بل يندرج الارتياب ليغطي أرض العراق فقد أصبحت تحدث ارتيابا وخوفا في نفسية ريتش الذي يرى بغداد مدينة خادعة.

إن النظرة الاستعمارية التي يكرسها الإنجليز في تعاملهم مع العراق لم تكن تنحصر على أجزاء معينة من الأرض بل تناولت البناء العراقي من شماله إلى جنوبه وهذا ما أكد المستعمر مرارا بقوله : "من الخطأ اعتبار أن المركز وحده هو الذي يقرر النتائج، إذ يمكن للأطراف إذا أحسن

---

(١) منيف، عبد الرحمن، رض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج١، ط٢، ٢٠٠٢، ص٢٩٥ .
(٢) المصدر السابق، ج٣، ص٥٢.

تحضيرها وتدريبها، أن تطبق على المركز كما يطبق الوحش على فريسته، ويكون الظفر مؤكدا، إذا أحست الفريسة أنها بعيدة أو أنها بمأمن." (١)

أمام تحدي الإنسان والأرض يجد المستعمر نفسه ملزما برسالة مقدسة تجاه وطنه، وهذه الرسالة لا تبدو ملزمة خاصة إذا اتصلت بمصالح الفرد الغربي وطموحاته، وهذا ما اتضح عندما رفضت ماري زوجة ريتش فكرة الإنجاب في منطقة الشرق معللة ذلك بأن الطفل سيكون طبيعيا في بريطانيا، أما إذا ولد في الشرق فإنه سيحمل عقلية هذه الأرض والتي تبدو في نظرها مرفوضة لما يسودها من الجمود والتعقيد." (٢)

هذه هي نظرة الإنسان الغربي للإنسان والأرض في الشرق أما نظرة الأنسان الشرقي للأرض فإنه يبدو رهينا لها ولا يستطيع الانفصال عنها أو التغير حيث تبدو الطبيعة مهيمنة متسلطة تسير الإنسان وتتلاعب بمصيره ومن الأمثلة على ذلك الفيضان الذي يضرب العراق فإن له حضورا خطيرا ومدمرا وينتج قلقا للمجتمع بجميع فئاته صغاره وكباره، مزارعين وتجار، وهكذا فالطبيعة بفيضانها وعدم قدرة الإنسان العراقي على بناء السدود التي من خلالها تتحول مياه الفيضان من عامل موت إلى عامل حياة لكافة المزروعات تجعل الإنسان مرهونا بسيطرتها. ومن الأمثلة أيضا على نظرة الإنسان الشرقي للأرض الحاج شبلي عبد المولى أحد ملاكي البساتين فقد كانت الأرض له بمثابة إنسان يحتاج إلى رعاية وعناية بعد أن أخذت المساحات الجرداء تهدد وجود الإنسان وديمومته، ولعله من خلال هذا القلق يقدم لوما للإنسان العراقي الذي أخذ يسعى وراء مفردات الربح السريع. (٣٢)

---

(١) منيف، عبد الرحمن، ارض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج٢، ط٢، ٢٠٠٢، ص٥٣ ـ ٥٤.
(٢) المصدر السابق ص٥٧.

(٣) منيف، عبد الرحمن، ارض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ج١، ط٢، ٢٠٠٢، ص٥١٣.

من الملاحظ أن مكونات الأرض عند عبد الرحمن منيف يظهر عليها الطابع الإنساني فهي مليئة بالحركة والإحساس والتبدل من فترة زمنية إلى أخرى.

لقد ظهر اللقاء الحضاري في رواية مدن الملح بصورة مغايرة لها في أرض السواد لأن الأجانب ظهروا بمظهر المسالمين الذين يسعون لرقي الأرض الشرقية كما حدث في اضراب العمال في حران وعداء الشخصيات في رواية مدن الملح كان مع السلطة التي تحكم مناطقهم وليس مع الغرب كما في رواية أرض السواد.

ومن خلال نصوص رواية مدن الملح نجد أن الشخصيات تماهت واندمجت مع الأرض بصورة أعمق لتحافظ على هويتها ومبادئها ونلاحظ أن عبد الرحمن منيف منذ البداية استطاع أن يكون علاقة حميمية بين الأرض والإنسان فمن ملامح هذه العلاقة البناء الجسدي كما في رواية مدن الملح (التيه) عند الحديث عن أهل وادي العيون لأن شخصية الوادي امتزجت بشخصية أهله وذلك بسبب موقع الوادي وانعزاله، فساهم في تشكيل ساكنيه واكسبهم ملامح معينة فيغلب عليهم الطول، أما وجوههم فإنها أميل إلى الطول لكنها تفيض بالراحة لفرط تناسقها وانسجامها، شفاههم رقيقة مع وجنات منسكبة دون بروز أو نتوءات من أي نوع.(١)

ولعل ذلك مستمد من صعوبة الصحراء إذ تمتاز بملامح تختلف عن بقية المناطق الأخرى. ولم يقتصر تأثير الأرض على البناء الجسدي فقط، بل طبعهم بصفات خلقية تحدد علاقتهم بغيرهم فالقوافل التي تمر بالوادي كان التجار الذين اعتادوا النوم إلى جانب أحمالهم، يتخلون عن هذه العادة عندما يأتون إلى الوادي. (٢)

(١) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (التيه) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص١٥- ١٦.
(٢) انظر المصدر السابق ص١٣.
(٣) المرجع السابق ص١٣.
(٤) المرجع السابق، تقاسيم الليل والنهار، ص٦٨.
(٥) المرجع السابق، تقاسيم الليل والنهار، ص٦٨.

ولعل انعزال الوادي عن بقية المناطق، فرض على أهله أن يتعاملوا كبنية واحدة وأسرة متكاتفة، فيضطر الشخص إلى العمل من أجل المصلحة العامة لأنه يعدها جزءا من مصلحته الشخصية، وبذلك تندمج الأنا في الكل للحفاظ على المصلحة العامة في الوادي، وكانت صفة التعاون من الصفات المهمة التي طبع بها أهل الوادي ولا يكترث الشخص إذا سافر إلى الخارج وترك أهله وبيته.

"فإذا سافر الأزواج والأخوة كان أصدقاؤهم يهتمون بالنخيل وبزراعة بعض المحاصيل نيابة عنهم، إنها عادة من عادات الوادي." (١)

أما صحراء موران التي امتازت بالخشونة فقد فرضت على إنسانها نمطا معينا من الحياة فأثرت قساوة الصحراء في سلوك هؤلاء البشر وطريقة تعاملهم مع الآخرين وأصبحوا يمتازون بالخشونة، وهم أقرب إلى الحراشف القاسية المتينة التي تراكم بعضها فوق بعض، وجلودهم سميكة قساة، لا يستطيع أحد أن يصل إلى مداركهم. (٢)

ولعل خشونة موران وتقلباتها لمجاراة الحياة الجديدة، جعلت أهلها هم النبات الحقيقي لها وهم كصحرائها، فبمقدار ما تبدو الصحراء بسيطة إلا أنها تخفي في ثناياها أمورا غامضة، وكذلك أهلها الذين يعيشون فيها فإنهم شديدو المكر أقرب إلى الغموض. (٣)

---

(١) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (التيه) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص١٣.
(٢) المصدر السابق، تقاسيم الليل والنهار، ص٦٨.
(٣) المصدر السابق، تقاسيم الليل والنهار، ص٦٨.

من خلال ما تقدم نلاحظ أن الإنسان من هذا النوع – المرتبط بالأرض والمكتسب جميع تصرفاته منها – يصعب عليه أي تغيير للأرض بصورة مفاجئة وأي تغيير يحدث على شخصيته يكون تغيرا مصطنعا، جاء تلبية لمعطيات المرحلة الجديدة ومسايرة لمراحلها الحضارية وبخاصة التغير الذي يحدث للبدوي لأن البداوة "قيمة ومشاعر وأخلاق وسلوك يمكن أن ترحل مع البدوي حين يغادر باديته." (١)

ومهما اتسمت الأرض من ثبوت نسبي ويتبعه ثبوت في ملامح ساكنيها إلا أن التغيير، لا بد وأن يؤثر فيها وبالتالي في ساكنيها، فنرى التغيير الذي طرأ على الأرض في تلك الفترة لم يؤثر في شكل المدينة فقط وإنما تعدى ذلك إلى تغيير في ملامح البشر أيضا، فكانوا "طرازا مشوها من المخلوقات، أو أشبه ما يكونون بإحدى مراحل نمو الضفدع. خاصة المرحلة المتوسطة، حيث لم تعد تربطهم بما كانوه صلة." (٢)

من خلال ما سبق نلاحظ أن الظروف الطارئة التي تحدث للشخصية والأرض تقوم بدور في تحديد العلاقة بين الطرفين، وكثيرا ما تؤدي إلى خلق صراعا متبادل بين الشخصية والأرض ينتهي بتكوين علاقة سلبية عدائية ظاهرية بينهما، وارتباط حقيقي خفي لا يمكن تجاهله بينهما.

وقد ظهرت هذه العلاقة في بداية زمن النفط حيث قطع المجتمع البدوي إلى نصفين متضادين إذ انتقل الإنسان نقلة مفاجئة من اعتماده على الزمن إلى الاعتماد على الحضارة وكل الوسائل التي جاءت إلى هذه المنطقة لإحداث التغيير من غير التمهيد له. إن التغير الذي حدث تغير سلبي يكشف عن عجز الإنسان العربي في هذه المنطقة وفي تلك المرحلة بالذات هذا الإنسان الذي بهره التغير المفاجئ، فواكب حضارته دون أن يدرك أبعاده فانتقل يصارع الحياة

(١) حسن عبد الله، محمد، الريف في الرواية العربية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، ١٩٨٩.
(٢) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (بادية الظلمات) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ص٢١٥.

الجديدة وبمجيء الحملة وترحيل أهل الوادي، ظهرت عندنا مناطق جديدة تصارعها أحداث متنوعة، وكل حدث جديد يساهم في بناء منطقة جديدة، فتعددت الأحداث، وبالتالي تعدد المناطق فظهرت روضة المشتى، والحدرة، وحران، وموران، وعن طريق تطور الأحداث في هذه المناطق صور لنا عبد الرحمن منيف حقيقة الصراع الذي حدث فيها؛ نتيجة لعدم تمكن أهلها من التأقلم مع الظروف الجديدة. وبتطور الأحداث، انفتحت هذه المنطقة على العالم، وبدأت تدخل عليها الوسائل الحضارية الجديدة التي استطاعت السيطرة والتحكم في عقول البشر، وقد ترتب على ذلك اختلال في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فالشيوخ الذين كانوا يسيطرون على الأمور في الفترة السابقة أصبحوا الآن لا قيمة لهم، وتفككت الروابط الاجتماعية نتيجة للهاث وراء لقمة العيش، فسادت المصلحة الشخصية على المصلحة العامة وعمت الفوضى جميع أنحاء البلاد، وبذلك انفتحت هذه المنطقة على العالم، فسيطرت الدول الأجنبية عليها بحجة مساعدتها اقتصاديا، وانتقل الناس من اعتمادهم على منتجاتهم المحلية إلى الاعتماد على ما يأتيهم من الخارج، وقد صور عبد الرحمن منيف هذه الحياة بأدق تفصيلاتها ليبين الحالة التي وصل إليها هذا المجتمع بعد هذه المرحلة.

لقد كان للسلطة في روايتي مدن الملح وأرض السواد أثر واضح في اخلال علاقة الإنسان بالأرض ولكن عبد الرحمن منيف من بداية رواية مدن الملح إلى نهايتها وهو يقرع السلطة في أرض الخليج ويذكرها بصورة سلبية ويحملهم كل هذا إلى التغيير السلبي الذي حدث في المنطقة ولم يذكر التقدم الذي حدث في أرض الخليج بصورة ايجابية أما السلطة في أرض العراق فلم يكن لها التقريع الذي كان لسلطة الخليج، ففي بداية رواية أرض السواد ذكر مساوئ الحكام الذين سبقوا داود باشا بصورة سريعة، وأخذ يذكر الصفات الايجابية وكيف تطور السراي وغير وجهة نظر

الأجانب، أما في رواية مدن الملح فكان ذكره للسلطان بصورة سلبية غير قابلة للتطور حتى بعد عزل السلطان وتولي آخر، فلم يكن له هذا الحضور في التطور والتغيير.

رأينا فيما سبق دور السلطة في إعمار الأرض، فالدور إذا كان إيجابيًا تخرج الأرض كنوزها الدفينة، أمّا إذا كان دور السلطة سلبي في التعامل مع الأرض(رمز الهوية) تفنى مقدراتها(الإنسان)

الفصل الثالث

الدراسة الفنيـة

الفصل الثالث

الدراسة الفنية

١- السرد :

"السرد أو القص هو فعل يقوم به الروائي، وهو عملية إنتاج يمثل فيها الراوي دور المنتج، والمروي له دور المستهلك، والخطاب دور السلعة المنتجة. ويطلق السرد كذلك على صيغة من صيغ الخطاب وظيفتها وصف سير الحدث كفعل في الزمن.

وهناك أربعة أنواع من السرد بحسب العلاقة بين زمن الراوي وزمن الحدث :

أولاها : السرد اللاحق للحدث، وهو زمن السرد الشائع في الرواية وفيه يشير الراوي إلى أنه يروي أحداثا وقعت في ماض بعيد أو قريب.

وثانيها : السرد السابق للحدث وهو من الحكايات التنبئية التي تعتمد عموما صيغة المستقبل، ولكن لا شيء يمنعها من اعتماد صيغة الحاضر (نص يروي الأحداث والتنبؤات وتستبق الأحداث).

وثالثها : السرد المزامن للحدث وهو الزمن الحي الذي يتطابق فيه كلام الراوي مع جريان الحدث.

ورابعها : السرد المتداخل وهو السرد المتقطع الذي تتداخل فيه المقاطع السردية المنتمية إلى أزمنة مختلفة (الحاضر والماضي والمستقبل)". (١)

(١) د. زيتوني لطيف : معجم مصطلحات نقد الرواية، دار النهار للنشر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠٠٢، ص١٠٥.

احتفى عبد الرحمن منيف في معظم رواياته بالسرد الذي يستخدم ضمير الغائب وهذا النوع من السرد يكون السارد فيه عليما بكل الأحداث الماضية والآتية ويقوم بتقديم الشخصية من الداخل والخارج، فيكشف عن نوازعها الداخلية وعلاقاتها مع غيرها من الشخصيات أو عناصر الرواية الأخرى إلا أن السارد في مثل هذا النوع من السرد يأتي حضوره على أنحاء مختلفة تختلف تبعا لها طريقة رسم الشخصيات وتقديمها. والمتتبع لروايات عبد الرحمن منيف يلحظ مدى التطور الذي لحق بتقديم الشخصية وعرضها في رواياته، الذي يشير من جهة أخرى إلى تطور الكاتب فنيا عبر جميع مراحله الإبداعية.

قدمت الشخصية من خلال علاقتها بعناصر الرواية المختلفة في بداية إنتاج عبد الرحمن منيف بشكل يعتريه القصور، وينقصه النضج الفني، وهذا الأمر ينطبق على باقي الشخصيات ولعل أبرز مظاهر هذا القصور هو جعل السارد حاجزا بين القارئ والشخصيات، فلا يستطيع القارئ أن يكون صورة عن الشخصية الروائية من خلال أفعالها وأقوالها وصراعاتها المختلفة، لأن السارد يستخدم الأسلوب التقريري، وهو الأسلوب الذي اتكأ عليه عبد الرحمن منيف خصوصا في مرحلته الواقعية.

وأكثر ما يتجلى هذا الأسلوب في رواية (مدن الملح وأرض السواد)، فقد عقد المؤلف فصولا كاملة قدم من خلالها الشخصيات في بداية الرواية بأسلوب تقريري، فأعطى صورة متكاملة عن نشأتها وأفكارها وميولها وجوانبها الإيجابية والسلبية، وكما يقول نبيل راغب عن نجيب محفوظ في قضية الشكل الفني عنده فبدلا من أن يقدم لنا نجيب محفوظ الشخصية وهي تتحرك في أبعاد حدث معين، فتبدو حية ومتفاعلة، نجده يضع الشخصية داخل إطار معين أو في وقفة معينة،

حتى يصفها على مهل وبالتفصيل وهذا يبطئ من إيقاع الأحداث، وبالتالي يحدث فجوات في البناء العام للرواية لتردد الكاتب بين الأسلوب التقريري والتكنيك الدرامي. (١)

ينطبق هذا القول على شخصية متعب الهذال فقد قدمها عبد الرحمن منيف في مفتتح الرواية (مدن الملح، التيه) وتقديمه كان بأسلوب تقريري يحدد فيه نشأته وطريقة حياته مع أسرته ثم يقوم بتحديد طبيعة سلوكه وعلاقاته بالآخرين بقوله : "دفع متعب الهذال بندقيته إلى ولده بزهو. كان يريد أحدا يشاركه هذه اللعبة الغامضة والمثيرة كان يفيض في تلك اللحظة بمشاعر حادة سريعة وبخفة أقرب إلى الانفعال." (٢)

وبعد ذلك يشير إلى مبادئه ومعتقداته التي ينطلق منها ويدعو إليها "خلال رحلة العودة إلى الظهرة ، اختار متعب الهذال طريقا طويلا طريقا لا يسلكه إلا نادرا ، وبدأ رجلا جديدا لكل من رآه ولكل من عرفه" (٣) وهذا الموقف بعد رؤيته الأجانب وخوفه على وادي العيون.

وبذلك يقدم السارد من خلال هذا التقرير مختلف جوانب الشخصية دفعة واحدة، ولا يفسح لها المجال لتقدم نفسها من خلال تصرفاتها ومواقفها المنتشرة في الرواية ومثل هذا التقرير عن شخصية متعب الهذال يلغي عنصر التشويق في معرفة هذه الشخصية ثم تأتي مواقفها بعد ذلك متوافقة مع الخطوط الرئيسية التي قدمت في البداية وبذلك يتحول القارئ لهذه الرواية إلى قارئ سلبي لأنه يقوم بدور المتلقي فقط وعليه أن يقبل أو يرفض وليس لديه إلا أن يتجاوب إلا التجاوب العاطفي التقليدي.

---

(١) راغب، نبيل : قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٨٨، ص١٠٤.
(٢) منيف، عبد الرحمن: (مدن الملح، التيه) المؤسسة العربية للدراسات والمركز الثقافي العربي، الطبعة العاشرة، ٢٠٠٣، ج١، ص٢٤.
(٣) المصدر السابق ص٣٥.

وأغلب الظن أن عبد الرحمن منيف قام بتصوير الشخصيات بهذه الطريقة كنماذج لأفكار ومعتقدات سابقة لديه، لذلك ظهرت مسطحة لا يستطيع القارئ أن يغوص إلى أعماقها أو ينفذ إلى خصائصها الفردية وتناقضاتها الداخلية لأنها كانت في الغالب مجرد واجهة للاتجاهات الفكرية وخصوصا في الروايات والواقعية.

إنّ الرّواية (مدن الملح، التيه) لا تخلو من توظيف تقنيات سردية أخرى أسهمت في رسم شخصية متعب الهذال حيث تقدم الشخصية في الرواية عن طريق "مصادر إخبارية ثلاثة :

- ما يخبر به الراوي.
- ما تخبر به الشخصيات ذاتها.
- ما يستنتجه القارئ من أخبار عن طريق سلوك الشخصيات". (١)

وكما هو ملاحظ فيما سبق فإن المصدر الأول هو الطاغي في روايات عبد الرحمن منيف وخصوصا الواقعي منها، أما ما تخبر به الشخصيات ذاتها فإنه يأتي لتأكيد ما قدمه الراوي من معلومات حولها، فحين يشير الراوي أن متعب الهذال يأبى الاعتراف بالأجانب وخوفه من مجيئهم أتبع ذلك بقول للشخصية كدليل على ما ذهب إليه.

"أكيد هؤلاء لم يأتوا من أجل الماء إنهم يريدون شيئا آخر".(٢)

وعندما يشير السارد إلى ما اتصف به متعب الهذال من انكار لروح الفكاهة فإنه ينطق إحدى الشخصيات غير المعروفة لتأكيد هذا الأمر.

---

(١) الحمداني، حميد : بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩١، ص٥١.
(٢) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (التيه)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المركز بيروت، ط٢، ١٩٨٦، ص٥٣.

"ولما وصل خبر الحالة التي ألمت بمتعب الهذال إلى ابن الراشد قال لإثنين أو ثلاثة حوله، وقد بدا صوته حزينا :

- العتوم دائما بهذا الشكل ، إذا كبر الواحد منهم ينهبل أو يذبح. وخفض صوته كثيرا حتى أصبح همسا :
- لازم يسرح بالغنم أو يلعب الأولاد ... متعب الهذال." (١) ولم يكن سلوكه في الرواية محط اهتمام كما أنّه لم يكن قادرا على أن يهيئ للقارئ اكتشاف شيء جديد في شخصية متعب الهذال من ذلك، "رجع متعب الهذال إلى الظهرة إنسانا آخر كان شخصا جديدا تماما : إذ بعد أن نزل عن فرسه وبدا مترنحا زائغ النظرات وفي حالة من الإعياء الشديد أو ربما المرض سقط عند باب البيت ... وبدا في أشد الحالات الحزن والإعياء وكأن الدنيا في نهايتها". (٢)

أما في رواية مدن الملح (الأخدود) فإن مساحة الأسلوب التقريري بدأت بالتقلص في تقديم الشخصية غير المنتمية للأرض، التي ظهرت في كثير من الأحيان من خلال سلوكها وتصرفاتها لذلك راوح في السرد بين الأسلوب التقريري والأسلوب الدرامي، وقد بدأت الرواية بالأسلوب الثاني حيث يطرأ تغير على موران بسبب مرض الأمير خريبط وموته مما يعني صمت موران، وهنا تتكشف ملامح الدكتور صبحي المحملجي من خلال موقفه من هذا الحادث إلا أن السارد يتدخل أثناء عرض موقفه فيفرد لهذه الشخصية فقرات لإلقاء الضوء على ماضي الشخصية وأثره في سلوكها ويبدأ هذا الفقرات "أما الدكتور صبحي الذي زار موران عدة مرات من قبل ولم يلفت نظر

(١) منيف، عبد الرحمن: مدن الملح (التيه)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المركز بيروت، ط٢، ١٩٨٦، ص٥٣.
(٢)المصدر السابق ص٧٥.

الكثيرين وكانت تلك الزيارات جميعها بدعوة من الأمير خزعل فقد ظهر في هذه الزيارة شخصا مختلفا بل وخطيرا لأن العيون كلها كانت تراقبه وتتابعه. ولأن حياة السلطان كانت بين يديه". (١)

كما يسهم في تقديم شخصية الدكتور صبحي من خلال آراء الشخصيات الأخرى في الرواية وإعطائها وجها آخرًا بحسب تصور الشخصيات الأخرى، فشخصية الدكتور صبحي رغم ما لها من احترام في نفوس أهل موران وما قدمه من خدمة للأمير خريبط إلا أنه يتكشف بصورة أخرى عند محمد عيد حين يقول : "أنه يعرف متى يكذب الحكيم وكيف كان شريكه في أكثر أكاذيبه. قال لنفسه وهو يتقلب للمرة المائة في محاولة لأن ينام : "ابن الكلب عملها معي، ونسي أننا دفناه سوا". (٢)

ويتحول الدكتور صبحي عند أهل موران محل احترام ويبدأ مؤامراته التي استغل السلطان لينفذها "ومن خلال أوامر السلطان حصل الحكيم على ما يريد من أموال، وقد حصل عليها دفعة واحدة سواء من أجل الصحافة أو جهاز الأمن أو من أجل "الهدايا والإكراميات ومصاريف خاصة". (٣) وهكذا تجاوز الكثير من المعارك والإحراجات التي يمكن أن تحصل لو امتثل إلى ما كان يريده ويفترضه الشيخ مالك.

ويندرج في هذا الإطار شخصية السيد عليوي (الآغا) في رواية أرض السواد فقد قدمت بالطرق السردية نفسها وتعرضت إلى انتقادات من شخصيات أخرى.

ولعل شخصية بدري بن صالح العلو في رواية أرض السواد من الشخصيات التي اكتسبت عمقا في عرضها من خلال مواقفها واستخدام أساليب سردية أخرى كالحوار الداخلي وتصوير

---

(١) منيف، عبد الرحمن: مدن الملح (الأخدود)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المركز بيروت، ط٢، ١٩٨٦، ص٩.
(٢) المصدر السابق ص١٩٤.
(٣) المصدر السابق ص٢٤٧.

الصراع الذي تعيشه في داخلها بين مبادئها وأهوائها إلا أن هذه الشخصية قد شابه تدخلات من قبل السارد أظهرت انحيازه في بعض الأحيان ، وتدخل الراوي في موقف الشخصيات له مستويات مختلفة بحسب وصفه في الرواية "إمّا أن يكون الراوي خارجا عن نطاق الحكي، وأن يكون شخصية حكائية موجودة داخل الحكي". (١) وبناء على ذلك يترتب تأثير تدخلاته في السرد "يمكن أن يتدخل في سيرورة الأحداث ببعض التعاليق أو التأملات تكون ظاهرة وملموسة إذا كان شاهدا لأنها تؤدي إلى انقطاع في مسار السرد، وتكون مضمرة ومتداخلة مع السرد بحيث يصعب تمييزها إذا كان الراوي بطلا وفي بعض الحالات التي يكون فيها الراوي غير ممثل في الحكي ويلجأ إلى التدخل والتعليق على الأحداث فإن الأمر قد يؤدي تصديع البناء الخيالي". (٢)

إن الراوي في ثلاثية (أرض السواد) غير ممثل أي ليس شخصية من الشخصيات الموجودة سواء كانت شاهدة أو مشاركة، إلا أن ذلك لا يخفى انحيازه إلى وجهات نظر معينة فلم يكن سرد عبد الرحمن منيف في أرض السواد سردا موضوعيا بحيث يكون محايدا في تقديم الشخصيات، وولوج شخص عبد الرحمن منيف في العمل القصصي أمر بديهي لكن هذا الولوج يختلف من قصة إلى أخرى، لأن ذاتية المؤلف تتضمن وجهات نظر مختلفة، يسعى إلى اظهارها وإلى إخفاء هذه الذاتية في الوقت نفسه.

ولا يخفى كذلك الرابطة المشتركة بين المؤلف وبدري في ثلاثية أرض السواد، ومتعب الهذال في رواية مدن الملح التي أشير إليها من قبل حتى صار بدري ومتعب الهذال معبرين عن كثير من آراء عبد الرحمن منيف وقد يقومان في دور السارد في بعض الأحيان، فيوضحان أقوال

(١) الحمداني، حميد : بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩١، ص٤٩.
(٢) المرجع السابق ص٤٩.

الشخصيات فعندما حدث حوار بين الآغا وبدري بعد وصوله إلى كركوك وحين التقاه الآغا، بعد أسابيع وقد أضفى على اللقاء طابع العفوية، "إذ جرى بعد سباق للخيل بين ضباط القلعة، قال له :

- كنت أظن أن ضباط الباشا لا يحسنون سوى نقل الرسائل والتعليمات أما أن يفوزوا بسباقات الخيل فهذا شيء جديد!
- علمونا في المدرسة الرماية وركوب الخيل ...

وابتسم قبل أن يواصل، كي يخلق جوا أليفا :

- أما السباحة فقد تعلمناها وحدنا، وقبل أن نتعلمها شربنا من الشط كما تشرب الجمال!
- ونقل الرسائل؟
- وتعلمنا في المدرسة الطاعة وتنفيذ الأوامر وما يطلبه الرؤساء!

شد الآغا على ساعده قريبا من الكتف تعبيرا عن الود، وأضاف بمرح :

- الضابط الجيد هو الذي ينفذ أوامر رؤسائه بأمانة، دون أن يسأل لماذا صدرت تلك الأوامر أو ما هو المقصود منها".(١)

كذلك يتدخل السارد على لسان متعب الهذال في معرض حديثه مع الأمير للدفاع عن أرض وادي العيون.

قال الأمير : "لا تخف، أصلكم، لكن ما أريده منكم أن تقدموا للجماعة كل المساعدة، لأنهم جاؤوا من تلفات الدنيا ليساعدونا.

قال متعب الهذال بعصبية :

---

(١) منيف، عبد الرحمن: أرض السواد،ج٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المركز الثقافيالعربي،ط٢، ٢٠٠٠،ص٣٣.

- الله يخزيهم ... ما نريدهم ولا نريد مساعدتهم" (١) وبعد نقاش بينهم حول مجيء الأجانب قال الأمير : "في وادي العيون، هنا، وفي كل مكان من هذي الأرض المباركة، وصاحب الجلالة عندما انتزع هذي الأرض بحد السيف وحارب الأعداء والكفار، كان يعرف من أجل أي شيء يحارب.

قال متعب الهذال ببرود تحد :

- حنا اللي حاربنا، بسيوفنا أخذنا هذي الأرض شبرا وراء شبر."(٢)

وهنا يتضح أن السارد غالبا ما يقدم الشخصيات من منظار شخصية قريبة الشبه بشخصية المؤلف الأمر الذي يشير إلى بداية نمط آخر من السرد إذ اختلف فيها السرد اختلافا بينا عن المرحلة السابقة حيث أصبح لصيق شخصية محورية هي مصب الأحداث ومحورها، والمضطلعة بسردها في مواضع كثيرة وبهذه الوطأة أتيح لها أن تمدّ من الأحداث ما هو وثيق الصلة بذاتها وأن تقتصر من بعضها الآخر على الوجه الذي يتمثله وجدانها وأن تسقط كليا أو جزئيا من الوقائع ما كان بعيدا عن أزمتها وشواغلها. (٣)

فشخصية ابن الراشد مثلا في رواية مدن الملح (التيه) لا تتكشف أمام القارئ إلا من خلال رؤية متعب الهذال الشخصية المحورية في الرواية.

لقد بدت شخصية ابن الراشد في (مدن الملح التيه) كعامل مساعد لتسليط الضوء على جانب معين في شخصية متعب الهذال والرواية على هذا المنوال تحكى كلها من خلال نظرة البطل إلى الأحداث ويتكون الشكل الفني لها طبقا لتصرفات متعب الهذال.

---

(١) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (التيه)، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي، بيروت ط١٠، ٢٠٠٣، ص٩٠.
(٢) المصدر السابق ص٩١.
(٣) قسومة، الصادق، النزعة الذهنية في رواية الشحاذ لنجيب محفوظ، تونس، دار الجنوب للنشر، ١٩٩٢، ص٦٠.

لذلك لا يلجأ عبد الرحمن منيف إلى تقديم شخصية ابن الراشد بواسطة فقرات تقريرية يتناول فيها لمحة عن ماضيه ونشأته كما كان الأمر في الروايات السابقة وإنما يقدم من خلال لقاءاته بمتعب الهذال فقط عبر رواية التيه لتكشف عن حالة الصراع التي يخوضها متعب الهذال والحلول التي يقدمها ابن الراشد.

أما ثلاثية أرض السواد فإنها تتشابه في طريقة سردها حيث تحوي عددا كبيرا من الشخصيات تعرض كل شخصية في فصل خاص، وهذا لا يعني أن الشخصية لا ترد إلا في الفصل الخاص بها بل تتوزع معلومات خاصة بها في فصول أخرى بسبب التداخل والتقاطع بين كثير من الشخصيات، ففي ثلاثية أرض السواد "سرعان ما تظهر هذه الشخصية أو تلك عند الحديث عن شخصية أخرى عبر لحظة زمنية مقصودة، لهذا ظلت تجارب تلك الشخصيات مفتوحة تمتاز بالتداخل والتقاطع." (١)

إلا أن هذا الكلام لا ينطبق على شخصية أولاد شمران المدافع عن سوق الحلال وأولاد الحكيم صبحي المحملجي (وأمي زهوة) أو الشيخة في رواية مدن الملح ونجمة وزوجة سيفو وأم بدري في رواية أرض السواد.

إذ لا يرد لهم ذكر في جميع الرواية خارج الفصل الخاص بهم ولا تتكشف جوانب شخصيتهم إلا من خلال علاقة السارد بهم وما يعرفه عنهم من معلومات، لذلك برزت بعض الثغرات في تقديم هذه الشخصية مما سبب اغفال كثير من الأحداث المتعلقة بهم ففي رواية مدن الملح الاخدود في معرض حديثه عن الشيخة زهوة "(أمي زهوة) شخصية خطيرة في موران وهي كذلك بنظر الناس

---

(١) الشيخ، خليل : السيرة والمتخيل قراءات في نماذج عربية معاصرة، عمان، دار أزمنة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ص٥٠.

جميعا ربما لأنها الأقوى من في قصر الروض. يتحدث عنها الصبية ويجاريهم الصغار، نقلا عن أمهاتهم أو عمن هم أكبر منهم سنا أو كما يصورها لهم خيالهم ...

لا يحكى عن ماضيها إلا القليل ولذلك لا يعرف على وجه مؤكد ما إذا كانت متزوجة أو أنها عزباء طوال حياتها". (١)

يظهر من خلال هذا النص اغفال مرحلة مهمة من حياة (أمي زهوة) أو الشيخة وهي التي شكلت تحولا كبيرا في حياة موران والراوي يبرّر ذلك بعدم رؤيته لهذه الشخصية لفترة طويلة ومثل هذا الإجراء يسمى (الإسقاط أو الغياب الكلي) الذي "يتمثل في اضمار حيز كبير من أحداث الحكاية فلا نجد له في النص ذكرا" فكأن القارئ إزاء ثغرة يتعمد الراوي اغفالها" (٢)

وهذا ينطبق فيما لاحظناه على العمة زاهدة في رواية أرض السواد التي كانت تسيطر على بيت صالح العلو مع أننا لم نعرف الكثير عن شخصيتها إلا أن بعض الشخصيات كشخصية وداد زوجة صبحي المحملجي مثلا في رواية مدن الملح وروجينا في رواية أرض السواد تظهر خارج التقرير الخاص بها ويؤدي ذلك إلى حضورها تدريجيا مما يزيد في شوق القارئ للتعرف عليها "ولهذا الأسلوب في بناء الشخصية أساسه الفلسفي، فالحقيقة أنه لا شيء كما أنه لا أحد يوجد أو يعيش في عزلة. (العلاقة) هي دليل الوجود والحياة ، كما أن هذا الأسلوب – من خلال العلاقة ذاتها – يقر بأن حقيقة الشيء ليست محصورة فيه إن بعضا من هذه الحقيقة ينتشر في الآخرين أو ينعكس فيهم أو لا يرى إلا بعيونهم". (٣)

(١) منيف، عبد الرحمن: مدن الملح (الأخدود)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ص٧٢.
(٢) قسومة، الصادق: النزعة الذهنية في رواية الشحاذ لنجيب محفوظ، تونس، دار الجنوب للنشر، ١٩٩٢، ص٥٨.
(٣) محمد حسن، عبد الله: حديث الصباح والمساء، مجلة إبداع، ع١٢، ديسمبر، ١٩٨٧،ص١٦.

فشخصية وداد في رواية مدن الملح وروجينا في أرض السواد ترد في الرواية بشكل نسبي يغلب عليه الحوار يحدد فيه الراوي سماتها العامة وأثرهما في حياة الدكتور صبحي وسيد عليوي وهذا الشكل غير كاف للتعرف على شخصيتهما من مختلف جوانبهما ومعرفة أفكارهما لذلك تظهر ملامحهما وتتكشف أفكارهما وسلوكياتهما في مواضيع مختلفة من الرواية عن طريق لقاءاتهما مع شخصيات أخرى لسيد عليوي وبدري وعماد قباني الذي دخل حياة وداد. (١)

وكذلك شخصية سيفو سقى الماء فإنها لا تأتي فقط في الفصل الخاص بها فحسب بل تتوزع على فصول مختلفة بسبب الترابط بين الشخصيات وتشابك العلاقات الواضح المتأتي من طبيعة الرواية التي تلقي الضوء على حياة أسر كثيرة فأول ما تصادفنا هذه الشخصية عند الحديث عن عمله وعلاقته بزوجته وأهل المحله التي يعمل فيها ولكن تقدم بإشارة عابرة عن عمله الشاق وحياته اليومية دون ذكر لضجر وتعب كما يظهر التقلب في حياته وتعرضه للضغط الجسدي والنفسي والمعيشي. (٢)

---

(١) انظر رواية مدن الملح الأخدود، ص٥٤، أرض السواد، ج١، ص٤٠٦ - ٤٠٩ - ٤١١.
(٢) انظر رواية أرض السواد ص٤١٤ - ٤٤١.

٢- الشخصيات :

"الميزة الإنسانية الشديدة المكبوتة في الرواية لا يمكن تفاديها؛ لأن الرواية مشبعة بالإنسانية ، ولا يمكن الهرب من الصعود والهبوط، كما لا يمكن الابتعاد عن النقد. فقد نكره الإنسانية فإذا تم التحرر منها أو تطهيرها، فإنّ الرواية تذبل، ولا يبقى منها سوى حفنة من الكلمات".(١)

لذا؛ تعد الشخصيات من أهم عناصر الرواية، "فلا وجود لرواية دون شخصية تصنع الحدث وتطوره وتشغل المكان، وعليه تظهر ملامح الزمن وتقلباته فهي كل مشارك في أحداث الرواية سلبا وإيجابا، أما من لا يشارك في الحدث فلا ينتمي إلى الشخصيات، بل يكون جزءا من الوصف.

الشخصية عنصر مصنوع، مخترع، ككل عناصر الرواية، فهي تتكون من مجموع الكلام الذي يصفها، ويصور أفعالها، وينقل أفكارها". (٢)

ربما يطغى حضور الشخصيات في الرواية، فتشكل المحور الأساسي في الرواية الذي تدور حوله بقية العناصر الروائية الأخرى. والشخصية " ليست شخصا، ولا وجود لها خارج عالم الرواية إنّها كتل كلامية(٣). ففي الرواية التاريخية تتشابه صفات الشخصية الروائية وصفات الشخصية التاريخية، ولكنهما يبقيان شخصين منفصلين. فلا شيء يمنع الراوي من أن ينسب الى شخصيات روايته أقوالا وأفعالا وميولا ومشاعرا لم يذكرها له التاريخ". (٤)

ومن غير الممكن : "أن تصور رواية دون شخصية مثيرة يقحمها الروائي فيها" (٥) ولكن في الرواية الحديثة فقدت الشخصية هذه المنزلة لتباين النظرة للفرد " فأنشأ الروائيون يجنحون للحد من علوائها والإضعاف من سلطانها في الأعمال الروائية فلم تعد الا مجرد كائن ورقي بسيط، وذلك انطلاقا من نهاية الحرب العالمية الأولى، وكلما تقدم الزمن ازدادت قسوة الروائيين على شخصياتهم". (٦)

---

(١) إ.م. فوستر: أركان الرواية، ت. موسى عاصي، جروس برس،ط١، ١٩٩٤م، ص٢٢.
(٢) زيتوني، د. لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية، دار النهار للنشر، مكتبة لبنان ناشرون،بيروت،ط١، ٢٠٠٢، ص١٠٥.
(٣) إ. م. فوستر: أركان الرواية، ت. موسى عاصي، جروس برس، ط١٩٩٤،١م، ص٣٧.
(٤) زيتوني، د. لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية، دار النهار للنشر، مكتبة لبنان ناشرون،بيروت،ط١، ٢٠٠٢، ص ١١٣_١١٥.
(٥) مرتاض، عبد الملك: في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٩٨م، ص٨٦.
(٦) المرجع السابق، ص ٨٦

وعليه كما جاء في معجم مصطلحات نقد الرواية " الشخصية دور والأدوار في الرواية متعددة ومختلفة. فالشخصية تكون رئيسية أو ثانوية أو صورية، حاضرة أو غائبة؛ متطورة (تتغير أوضاعها ومواقفها) أو جامدة؛ متماسكه (لا تتناقض بين صفاتها وأفعالها) أو غير متماسكه، مسطحة (صفاتها محددة وأفعالها مرسومة أو متوقعة) أو ممتلئة (مستديرة : متعددة الأبعاد، قادرة على أن تفاجئ الأخرين بسلوكها). (١)

وهذا الاختلاف في دور الشخصية في الروايات قاد بعض الدارسين إلى تصنيف الروايات تبعا لدور الشخصية فيها، فإذا كانت الشخصية تشكل العنصر الأساسي في الرواية وتتضافر بقية العناصر الأخرى لتوضيح جوانبها فهذه الروايات تسمى (روايات الشخصية) أما حين يتراجع دور الشخصية في الرواية، إذ ينصب الاهتمام بالدرجة الاولى على الحدث، فتغدو أدوات توضيح لهذا السبب وأضواء تسلط مختلف جوانبه فيطلق على هذه الروايات (روايات الحدث). (٢)

هذا التطور الذي حدث لدور الشخصية في الرواية ينطبق بالدرجة الأولى على الرواية الغربية، حيث كان حصيلة التغير في النظام الاجتماعي في فترة بدايات القرن العشرين، مما يدل أن موقع الشخصية فيها لم يتعرض أيدي الكتاب الغربيين حيث أصبحت عنصرا ثانويا عند كثير منهم "إن بيكت في عمل واحد قد غير اسم و شكل نفس البطل، وفوكز يسمى عن عمد شخصين مختلفين بنفش الاسم، أما فيما يخص (ك) في رواية القصر كفاكا يكتفي بذكر حرف واحد فهو بلا أسرة وبلا وجه ولا يمتلك شيئا". (٣)

من خلال ما سبق نلاحظ أن الاختلاف بين الرواية الغربية والعربية يؤكد بقاء الاهتمام بتطوير الشخصية الروائية والاهتمام برسمها بكل أنواعها ونماذجها عند الروائيين العرب وعلى رأسهم عبد الرحمن منيف وعدم تحولها كما في الرواية الغربية إلى عنصر هامشي.

---

(١) زيتوني، د. لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية، دار النهار للنشر، مكتبة لبنان ناشرون،بيروت،ط١، ٢٠٠٢، ص ١١٣-١١٥.
(٢) الحمداني، حمد: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩١، ص٥٢.
(٣) آلان روب جرييه، نحو رواية جديدة، تر، مصطفى ابراهيم مصطفى، مصر، دار المعارف، ص٣٦.

شخصيات عبد الرحمن منيف الروائية:

كما جاء في مصطلحات نقد الرواية تتعدد وظائف الشخصية في الرواية، فقد تكون عنصرا من عناصر المشهد الوصفي، أو شخصية مشاركة في الحدث، أو ناطقة باسم الكاتب، ولكن لا بد للشخصية الرئيسية من أن تكون متميزة بوجودها وعواطفها وبنظرتها إلى الأخرين وإلى العالم المحيط بها.

تشكل الشخصية عنصرا من عناصر المشهد الوصفي في الروايات الواقعية، فكثيرا ما تضم هذه الروايات شخصيات لا دور محددا لها، فتكون أحد عناصر التعبير عن اللون المحلي أو رسم الديكور الروائي. وقد تشكل الشخصية قوة فاعلة في الحدث إذا مثلت دورا أساسيا كالمرسل أو المرسل إليه أو الذات أو المساعد أو المعاكس أو موضوع الرغبة وقد تمثل الكاتب بصورة مباشرة أو غير مباشرة. (١)

إن الشخصية التي تشكل قوة فاعلة في الحدث هي الشخصية النموذجية والفارق بينها وبين الشخصيات الأخرى هو تمثيلها لجوانب عامة في المجتمع في سياق العمل الروائي ولا يعني ذلك أن تكون دائما غير نامية بسبب طبيعة دورها الذي يتطلب التعبير عن طبقة أو فئة أو اتجاه فكري في المجتمع فتبقى في حالة واحدة في الرواية فلا بد من أن "تتركز في وجودها الملامح التي تحدد اتجاها تاريخيا واقعيا، دون أن تكون مجرد خطوط تجريدية، فعندما نجد نماذج حقيقة من هذا النوع نستشعر على الفور العملية الجدلية بين ما هو خاص ذو إطار فردي محدد وما هو في نفس نموذجي العام". (٢)

ومن خلال القراءة في أعمال عبد الرحمن منيف نجده قد استخدم الشخصية النموذجية في أعماله كشرق متوسط ومدن الملح وأرض السواد وغيرها.

فعبد الرحمن منيف لم يترك نموذجا ينتمي للطبقات الاجتماعية إلا تناوله، فقد قدم نماذج الانتماء السياسي ونماذج الفتوة والشاذ وكذلك قدم نماذج تدلّ على الازدواج في الشخصية وغير

---

(١) زيتوني، د. لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية، دار النهار للنشر، مكتبة لبنان ناشرون،بيروت،ط١، ٢٠٠٢، ص١١٥.
(٢) فضل، صلاح: منهج الواقعية في الإبداع الأدبي، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٨، ص١٥٨.

ذلك، ويمكن أن ترد أسباب تصوير عبدالرحمن منيف لهذه الشخصية متقصيه لجميع الأفكار والاتجاهات التي تشكلت ونمت وكان لها أثر ملحوظ في المجتمع.

ومن أبرز هذه النماذج التي وردت في أعمال عبدالرحمن منيف شخصية متعب الهذَّال في رواية مدن الملح (المنبت) فمن خلال شخصيته يستطيع التعبير بشكل موضوعي، وتجديد الصراع بين الاتجاهات الفكرية المختلفة لكن هذه الصورة التي يقدمها عبد الرحمن منيف لشخصية الهذّال لا تشير إليه، كفرد بقدر ما تشير إلى اتجاه فكري معين، وتحدد جميع جوانبه وملامحه لذلك أصبحت هذه الشخصية عبارة عن نموذج أكثر كونها شخصية فردية، فوقع في بعض عيوب استخدام هذا النوع من الشخصيات التي تظهر من خلال "إبراز الصفات المشتركة بين الفرد وبيئته أو طبقته، لاتخاذها نموذجا لها، دون النفاذ إلى خصائص الفرد التي تتميز بها عن سواه، حتى أهل طبقته الاجتماعية نفسها وإذا أهمل المؤلف في الكشف عن هذه الخصائص جاءت شخصياته نماذج عامة لا حياة فيها". (١)

وقد يؤخذ على عبد الرحمن منيف أن هذه الشخصيات النموذجية التي يقدمها لا تعبر بصورة صادقة عن الفئة التي تمثلها بقدر ما تعبر عن فكر الكاتب نفسه وتوجهاته، بحيث تغدو هذه الشخصية معبرة عن موقف الكاتب بالدرجة الأولى من هذه الفئة، ومن هنا رأى بعض الدارسين أن هذه النماذج "أبواق لتصورات الكاتب نفسه تهبط من السماء على أرض الواقع وتتكلم بلغة متعالية لم نعرفها عن الثوريين الذين هم خلاصة تجربة معاناة وطموحات الشعب". (٢)

وهذا ملاحظ من خلال بعض شخصيات عبد الرحمن منيف، كمتعب الهذّال وزوجته وضحه الحمد، وأم الخوش ومفضي الجدعان وابن نفاع في رواية مدن الملح (التيه) وبدري وسيفو وزينب قوشان غي أرض السواد.

الملاحظ أن هذه الشخصيات وتطورات هذه النماذج في روايات عبد الرحمن منيف وفق المتغيرات السياسية والاجتماعية وعرضت بصورة أعمق، يظهر ذلك من خلال شخصية شمران في سوق الحلال وأبنائه في رواية مدن الملح (الأخدود)، الذي لم يقف عند تردد الآراء والافكار، وإنما

---

(١) هلال، محمد غنيمي: النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر،١٩٩٧، ص٥٠٨.
(٢) أبو عوف، عبد الرحمن: الرؤى المتغيرة في أدب نجيب محفوظ، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب،١٩٩١.

دعم ذلك بالعمل الجماعي عن طريق أبنائه الذين ترك لهم حرية العمل والوقوف في وجه السلطة. (١)

وظهر هذا النموذج أيضا في الصدام مع النظام، فشخصية (رجب) في رواية (شرق متوسط) تعبر عن العلاقة بين هذا الاتجاه الفكري والنظام عندما غادر رجب أرض السراديب المظلمة إلى فرنسا للعلاج من أثار التعذيب وهناك وجد الطبيب الذي عالج مرضه، وجد الطبيب الذي فتح زنزانة السجن على مساحة الوطن، وجعل النضال حركة متصلة والرفض موقفا مبدئيا والحقد على الطاغي ونهاية وموتا، بل صار محطة في مسيرة نضال طويل والمتتبع لحياة عبد الرحمن منيف وترحاله والحالة التي يجب أن يكون عليها المناضل، يجد تقارب بين حياته وشخصية رجب في رواية شرق متوسط، فرجب سافر إلى فرنسا للعلاج وقام الطبيب بعلاجه وتوضيح المفاهيم لديه، وكيف يكون الصمود أمام العنف والقهر الذي تمارسه السلطات للتغيير.

أما عبد الرحمن منيف فقد سافر من بغداد إلى مصر لدراسة وإكمال الحقوق بعد طرده لنشاطه السياسي ثم سافر إلى يوغسلافيا ودرس في جامعة بلغراد وحصل على شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية وفي اختصاص اقتصاديات النفط / الأسعار والأسواق، فمن الملاحظ أن اهتمامه قد انتقل من الحقوق والسياسة إلى الاقتصاد، وما هذا التغيير إلا لمواجهة القهر من وجه آخر، وهذا التخصص له علاقة بالأرض وما تختزنه من كنوز تسهم في تغيير المجتمعات والشعوب.

ومما يدل على تشابه شخصية عبد الرحمن منيف بشخصية رجب في (شرق متوسط) هو عودته للعمل في سوريا في الشركة السورية للنفط وبعدها في لبنان في مجلة البلاغ ثم العراق وتولي تحرير مجلة النفط والتنمية ثم غادر العراق إلى فرنسا وتفرغ للعمل الأدبي، كما هي شخصية رجب الذي لم يعرف كيف يناضل ويستمر في نضاله إلا بعد سفره إلى فرنسا وتوضيح الطبيب له كيف يقاوم العنف والقهر الذي تقوم به السلطات والمهم من ذلك الحصول على نتائج. (٢)

ومن خلال شخصيات عبد الرحمن منيف (متعب الهذّال وعائلته، وشمران، ومفضي الجدعان) في رواية مدن الملح (التيه، والأخدود) وسيفو، وبدري في رواية (أرض السواد) ورجب

---

(١) منيف، عبد الرحمن: مدن الملح (الأخدود)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ص٥٨٧_ ٥٩٠.
(٢) منيف، عبد الرحمن: الآن هنا،أو شرق متوسط مرة أخرى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المركز الثقافي العربي، ط٤، ٢٠٠١، ص ٤٤٣_ ٤٤٤.

في رواية (شرق متوسط) تظهر صورة المطارد الغريب والمنفي الذي تلاحقه الكلاب بكل ما تحمله من استعارة وايحاءات مجازية تنتقل به في رواية (شرق متوسط) من حقل الحيوان المعروف بالوفاء إلى حقل الإنسان الخائن المهادن العميل.

هذه الصورة متواترة في كثير من روايات المنفى العربية، وتوغلت في رواية السجن عند عبد الرحمن منيف؛ ليصبح العالم (شرق متوسط) سجنا كبيرا تملؤه الكلاب التي تؤكد أننا في أزمنة القمع التي لا بد من التمرد عليها ودحرها من ربوع الوطن. (١)

لقد كثرت العوامل والأسباب التي دفعت عبد الرحمن منيف لاختيار الموت لشخصية رواية (مدن الملح، التيه) مثل : موت أم الخوش في وادي العيون، وموت زوجة متعب الهذال وقلقها على الأرض والأمل بالعودة، وما حدث مع مفضي الجدعان في المعسكر، ونهاية رجب في رواية (شرق متوسط) في وطنه؛ لأن العودة إلى أرض الوطن والموت فيها أو فكرة الموت في أرض الوطن حياة واستمرارية، وبشرى بمستقبل مشرق جاءت نتيجة للصراعات التي أفرزها القرن العشرون في مختلف المجالات، فالصراع السياسي والاحتلال والاستعمار والمقاومة وكفاح الضعفاء في مواجهة الظلم، أنتجت ردة فعل تمثلت بالمقاومة والتمسك بالأرض والالتحام بالوطن؛ ولذلك كانت فكرة إدانة الهروب وعدم المواجهة أو الانسحاب مهما كانت الظروف والمبررات، وهذا الاتجاه كان ظاهرا من خلال شخصيات عبد الرحمن منيف الروائية ومثالا على ذلك : حلم عائلة متعب الهذال في العودة إلى وادي العيون، ومقاومة شمران للذين يريدون الاستيلاء على سوق الحلال، حتى أصبحت مقاومة للسلطة، وانظر إلى شخصية مفضي الجدعان في رواية مدن الملح التي لم تتغير" رغم أن حران لم تتوقف يوما واحدا عن التغير" (٢) وظل طيفه يأتي للناس ليساعدهم، وأما بالنسبة لشخصية متعب الهذّال وابنائه فكانت تقوم بدورها مهما حدث من تغير وتطور في الأرض التي ينتمون إليها حتى إنّ متعب الهذّال قام بتسمية مولوده الأخير باسم (مقبل) ليكون صامدا في وجهه التحديات والصعوبات في المستقبل وهذا ما حدث فقد جاء مع أخيه فواز ليقاوموا من يحاول التعدي على الأرض التي ينتمون إليها" اهتزت العوارض الاسمنتية كما يهتز القصب الفارغ، واقتلعت كما تقتلع الاشجار الميتة، أما الاسلاك، فقد دفنت خلال لحظات تحت الرمل، وتدفقت بعد

(١) [١١]الشحات، د. محمد: قراءة في روايات المنفى العربية، عبد الرحمن منيف نموذجًا، مجلة المدى الثقافي، العدد٢٧٠،السبت، ١٠. ١٠.أصوات من المنفى(٢- ٤).
(٢) منيف، عبد الرحمن: مدن الملح (التيه)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ص٥٣٣ .

ذلك أمواج البشر. قال كثير من الناس أنهم رأوا فواز الهذّال وأخاه مقبل الذي وصل حران قبل أسابيع قليلة، قالوا إنهم يطيران فوق الرؤوس. كانا كالعصافير يطيران ويصرخان : (جيناك ولبيك يا يوبه) وإن فواز كان أول من وصل على الجرحى وأكد الكثيرون أنهم رأوه وحده يحمل ابراهيم الدوسري، رغم أن ابراهيم يفوقه وزنا". (١)

أما في رواية أرض السواد فتتضح هذه الأفكار من موقف أهل المحلة في التصدي للباليوز وأعوانه.

من خلال ما سبق نجد أن الشخصية النموذجية لها امتداد في الرواية حتى بعد موتها للدلالة على أحلام الروائي وتطلعاته المستقبلية في التغيير.

لها تأثير في تغيير وجه المجتمع والأرض من بداية الرواية إلى نهايتها وهذا أيضاً ما تمثله شخصية الدكتور صبحي المحملجي في رواية مدن الملح من ظهورها إلى اختفائها.

هذه المواقف تبين أن التأثر بالأحداث عند هذه الشخصيات غير منطلق من تصور معين ومبادئ محددة انما هو رد فعل على ما يترتب عليها من تأثير على حياتهم الشخصية، وكما ذكرنا سابقا أن عبدالرحمن منيف اتخذ احيانا هذه الشخصيات كأداة تعبر عن موقفه الشخصي وآرائه التي لا يستطيع التعبير عنها بشكل مباشر.

---

(١) منيف، عبد الرحمن: مدن الملح (التيه)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ص ٥٩٦ .

٣- الوصف :

إن الروائي عندما يبدأ في بناء عالمه الخاص الذي سوف يضع في إطاره الشخصيات ثم يسقط عليه الزمن (حيث أن الزمان لا يوجد مستقلا عن المكان) يصنع عالما مكونا من الكلمات.

وهذه الكلمات تشكل عالما خاصا خياليا قد يشبه عالم الواقع، وقد يختلف عنه، وإذا شابهه فهذا الشبه شبه خاص يخضع لخصائص الكلمة التصويرية، فالكلمة لا تنقل إلينا عالم الواقع بل تشير إليه وتخلق صورة (مجازية لهذا العالم). (١)

وعليه يعد الوصف من أهم عناصر القص فلا غنى لأي حكاية عن الوصف، إذ هو أكثر لزوما من السرد "ذلك لأنه أسهل علينا أن نصف دون أن نحكي، من أن نحكي دون أن نصف (ربما لأن الأشياء يمكنها أن توجد بدون حركة على عكس الحركة التي لا تستطيع أن تكون بدون أشياء).

(...) إن السرد لا يقدر على تأسيس كيانه بدون وصف" (٢)

من هنا تبرز أهمية الوصف في العمل الروائي من حيث تصويره للأشياء التي يغفلها السرد، فالوصف يحدث وفقا لمجرى السرد الزمني من خلال تركيزه "على أشياء وكائنات منظور إليها في دائرة تواقتها (...)

وهذا ما أكدته سيزا قاسم بقولها"إنّ الوصف يبدو ملغيا لمجرى الزمن ومسهما في بسط السرد في المكان" (٣)

---

(١) سيزا قاسم : بناء رواية دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، القاهرة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤، ص١٠٤.
(٢) رولان بارت وآخرون : طرائق تحليل السرد الأدبي، الرباط، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ١٩٩٢، ص٧٦.
(٣) سيزا قاسم : بناء رواية دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، القاهرة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤، ص٧٧.

وفيما يتعلق بوصف الشخصيات بالعمل الروائي فإنه كان ذا أهمية بالغة في الرواية التقليدية والواقعية حيث كان يعامل على أساس أنها كائن حي له وجود فيزيقي، فتوصف ملامحها وقامتها وصوتها وملابسها وسحنتها (١) لذلك جاء اغناء عبد الرحمن منيف بوصف الشخصيات وخصوصا في رواياته الواقعية حيث يأخذ حيزا كبيرا في الرواية بنوعية الوصف الخارجي والوصف الداخلي (التحليل النفسي) وكلاهما يحدث قطعا في السرد " فالسرد في هاتين الحالتين يسير سيرا عموديا فيسهب عبد الرحمن منيف في معالجة موضوع الوصف والتحليل.

---

(١) مرتاض، عبد الملك : في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، الكويت، عالم المعرفة، ١٩٩٨، ص٨٦.

أ. الوصف الخارجي :

من الملاحظ أن عبد الرحمن منيف أولى وصف الشخصية المنتمية للأرض في رواياته وصفا خارجيا دقيقا، إذ يقوم الوصف على تصوير شكل هذه الشخصية وهيئتها ولباسها ومميزاتها المختلفة بدقة، ومن الملاحظ أنّه قدّم هذه الأوصاف في بداية انتاجه بصورة مثالية، أراد من خلالها أن يظهر هذه الشخصية كنموذج معبر عن فكرة يريدها مما سبب في بعض الأحيان اغفال لصفاتها الفردية الواقعية المميزة.

يتأكد ذلك من خلال تتبع الأوصاف التي يقدمها لمتعب الهذال وعشيرته العتوم في (مدن الملح التيه) حيث يظهر بالصورة التالية : "نتيجة لهذه الحياة اكتسب الناس في وادي العيون صفات في الجسد شديدة الظهور فهم أميل إلى الطول مع اتساق في العظام أما الأطراف فمستقيمة ناحلة وكذلك الخصور والأكتاف حتى ليظن من ينظر إليهم وكأنهم مجموعة من الخيول التي طال ترويضها واتعابها فظهرت أكثر مما ينبغي لكن ظلت مفتولة وجميلة أيضا. أما الوجوه فإنها أميل إلى الطول لكنها تفيض بالراحة لفرط تناسقها وانسجامها حيث تظهر الشفاه الرقيقة مع الوجنات المنسكبة دون بروز أو نتوءات من أي نوع عكس المناطق الأخرى والتي كثيرا ما تظهر عيوبا حادة في المكان من الوجه أو الجسد.

وغيرها من الأوصاف المثالية التي ربما يعسر أن تتجمع في شخص واحد في الواقع لكن غرض الكاتب أن يقدم فكرة أكثر من تقديمه لشخصية حية فأهل وادي العيون وخصوصا (العتوم) نموذج للانتماء للأرض والتضحية من أجلها فلا بد أن يحظوا بهذه الصفات المثالية التي تقدمهم بصورة ناصعة أمام الآخر.

والأمر ذاته ينطبق على الدكتور صبحي المحملجي وأتباعه والسلطان خزعل والأمير فنر والشيخة زهوة في رواية مدن الملح والملك داود وبدري وسيفو والآغا والعمة زاهدة وصالح العلو في رواية أرض السواد حيث يركز عبد الرحمن منيف على إظهارهم بصورة تناسب الدور الذي يقومون به.

ففي الأخدود يظهر الدكتور صبحي المحملجي بصورة بهية تناسب المهنة التي يعمل بها "ففي صبيحة اليوم السابع ومعه وفد كبير من حران فقد بدا إنسانا مختلفا لكل من رآه فالملابس الإفرنجية التي كانت تميزه من قبل عن الكثيرين حوله وكان يحرص على اختيارها بألوان زاهية ويحرص أكثر على نظافتها وأناقتها تخلى عنها لأول مرة في هذه الزيارة بل وبدا مثل دمية في الملابس العربية التي غرق فيها وكانت فضفاضة واسعة لا يحسن كيف يألفها أو يتعود عليها خاصة أثناء السير وكاد يعثر ويقع أكثر من مرة. أما اللحية التي تركها تنمو وتكبر خلال الأيام الماضية فلم تصبح، بعد، لحية مطمئنة مستوية مثل اللحى الكثيرة للآخرين حوله وليست مجرد ذقن طالت ولم تجد الوقت لأن تحلق كانت تحت الفترة الحمراء والبيضاء تشبه الظلال الحادة القائمة أو تشبه لحية رجل هارب، خاصة وأن الشعر في وجهه قد طال على شكل بقع صغيرة غير منتظمة." (١)

وهذا الوصف يتوافق مع وظيفة هذه الشخصية في المجتمع فقد كان مثال للشخص الذي يسعى لتحقيق أهدافه وغاياته على حساب الآخرين وذلك خلافا لما ذهب إليه نبيل راغب عندما رأى أن لا أهمية للوصف الخارجي في الرواية لعدم وجود رابط بينه وبين المعنى يقول : "لكن هذا الرسم الخارجي لا يخدم البناء العام للرواية ولا يحدد علاقة الشخصيات بتصرفاتها." (٢) بل إن

---

(١) منيف، عبدالرحمن: مدن الملح (الأخدود)، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٨٦، ط٢، ص١١.
(٢) راغب، نبيل: قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٨٨، ص١٠٤.

العلاقة بين وصف الشخصية وتصرفاتها تتضح بشكل أكبر في شخصية السلطان خزعل فهو يقدم بصورة الشخص الساذج اللامبالي لما يدور حوله "ورث السلطان خزعل عن أبيه صفتين : طول القامة وحب النساء وورث السلطة أيضا. فقامته الطويلة الضخمة كانت تثير الاستغراب أكثر مما توحي بالمهابة خاصة إذا عبرت عنها تلك الضحكة المجلجلة وذلك الصوت الكثيف المبطن والذي يبدو لأول وهلة وكأنه صادر من أعماق الصدر على شكل طبقات سميكة متتابعة أو على شكل موجات تدفع بعضها بعضا. فإذا هدأ وامتدت يده لتمسد اللحية تبرز أصابع عقداء طويلة ومدببة وكأنها سواعد طفل. أما الأسنان، وسط الوجه فأكثر ما تبدو شبيها بدرج أو بحائط متشقق لكثرة ما نهشت من اللحم ولفرط ما مر عليها المسواك." (١)

كما سبق نلاحظ أن الوصف الخارجي للسلطان خزعل يعكس نظرة عبد الرحمن منيف لحكام الخليج وأهم الأعمال التي يقومون بها. بينما الوصف الذي منحه للأمير فنر يعكس حلمه في تغيير الحكام ولذلك يقول "غاب الأمير فنر عن السلطة بضع سنين متنقلا بين سويسرا والنمسا والولايات المتحدة التماسا للراحة والاستجمام أو طلبا للعلاج لم يرجع إلى موران خلال هذه السنين إلا لفترات قصيرة لا تتعدى الأسابيع وكان في كل زيارة يحزم أمتعته فجأة ويرحل من جديد بعد أن يكون قد امتلأ تشاؤما وعاوده المرض مرة أخرى.

في هذه المرة وقبل انتهاء العام بثلاثة أسابيع عاد قال الكثيرون "زيارة مثل زياراته السابقة ... أما السلطان خزعل الذي اعتبر مجيء أخيه حدثا عاديا لا يثير تساؤلا أو خوفا وبالغ في الاهتمام به فما لبث أن أحس بالقلق لأن فنر الذي كان قليل الكلام ، غامضا، أصبح الآن مغلقا تماما ولا يجيد شيئا كإجادته الصمت."(٢)

---

(١) منيف. عبد الرحمن مدن الملح الأخدود ص٧٩.
(٢) المصدر السابق ص٤٥٥.

ننتقل إلى وصف الملك داود في رواية أرض السواد "يوم الجمعة صدقت التقديرات ودخل داود باشا. وطوال الطريق الذي سلكه بدا واثقا قويا ورغم الذي لمحه بعضهم في وجهه ونظرته خلال لحظات معينة فقد ظل يواصل الابتسام خاصة حيث تصله الأصوات : مرحبا وخير مقدم (١) حتى أن عبد الرحمن منيف قام بوصف حصان الملك داود تيمنا بمستقبل جديد وتحقيق لما يحلم به "الحصان الذي امتطاه داود باشا كان أقرب إلى البياض وقد سماه تيمنا، المبروك. كان الحصان بنظر الذين رأوه عن قرب أكثر ارتفاعا من الخيول الأخرى وكان أكثر رشاقة أيضا."(٢)

أما خيول السلطان خزعل التي أخذها إلى ألمانيا (بادن بادن) "ومع أن الخيول الأصيلة لا تخفي نفسها ولا تخفى فقد تأكد السلطان من هيئاتها وجمالها وحتى من أعمارها إذ فتح أفواهها وتطلع بإمعان إلا أنه شعر بأسى لعدم توافر معلومات بالمقدار الكافي عنها. فالرجال الذين جلبوها كانوا مجرد حراس عليها أكثر مما كانوا سواسا أو ملمين بتواريخ الآباء والأمهات كم عاشت وكم خلفت ومن يمتلك مثيلاتها."(٣)

وبذلك يكون للوصف دوره المهم في الرواية فلم تعد وظيفته ذات طابع تزييني بحيث يكون له دور جمالي خالص، بل تعداه إلى وظيفة أخرى ذات طبيعة تفسيرية ورمزية، فالصورة الجسدية وأوصاف اللباس والتأثيث تتوخى إثارة نفسية الشخوص وتبريرها في نفس الآن (٤) وربما كانت هذه الوظيفة أكثرا بروزا في روايات عبد الرحمن منيف المتقدمة.

---

(١) منيف، عبد الرحمن، أرض السواد، ج١، ص٣٠ -٣١.
(٢) المصدر السابق، ص٢٦.
(٣) منيف، عبد الرحمن: مدن الملح (المنبت)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٧، ١٩٩٩، ص٢٥٨.
(٤) القاسم، سيزا: بناء الرواية دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، القاهرة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤، ص٧٧.

كما انتقل الوصف فيها غالبا من وصف تصنيفي (يوصف الشيء وصفا موضوعيا حيث يقوم الكاتب بتتبع كل العناصر المكونة له) إلى وصف تعبيري (ينظر إلى الشيء من حيث وقعه على الناظر أو السامع فيلون الأشياء بنظر الناظر أو سمع السامع لها) (١)

وهذا ينطبق بشكل واضح على شخصية الدكتور صبحي المحملجي في رواية مدن الملح (الأخدود، المنبت) حيث تتشكل أوصافه من خلال سعيد وما يرصده من ملامح هذه الشخصية وتكون الأوصاف معبرة غالبا عن نفسية سعيد "سعيد رفض أن يصدق المصاهرة التي يتحدث عنها الكثيرون في السوق قال إن الحكيم يروج مثل هذه الشائعات ليجعل الناس ينسون حادثة الفندق وفي محاولة لأن يستعيد اعتباره. أما عندما التقى بحماد وتأكد من صحة هذه الأخبار فقد قال :

- ابن الحرام مثل القط ... كيف ما رميته ينزل على رجليه!" (٢)

من الملاحظ أن مساحة الوصف في هذه المرحلة قد تقلصت، وبات التركيز على الحوار لما له من دور في كشف عن نفسية الشخصية وإضاءة جوانبها.

وهذا الأمر ينطبق كذلك على رواية أرض السواد التي تحوي أحداثا ممتدة لفترات طويلة مما جعل السرد يسير بشكل أفقي ولا يتوقف إلا بلمحات خاطفة للوصف والتحليل.

كما عني عبد الرحمن منيف كثيرا بالوصف الدقيق للأماكن التي توجد بها الشخصيات وكانت هذه المواصفات تتلاءم مع طبيعة الشخصية وتسهم في تصويرها وتقديمها فمنظر بغداد من خلال وسط النهر اختلف عند سيفو بعد تركه لجباية الماء للمحلة وكذلك بدري يسبب عملة في السراي واهتمامه بالعسكر اختلفت بغداد في عينيه بعدما أخذ وقتا للاستجمام.

---

(١) القاسم، سيزا: بناء الرواية دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، القاهرة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤، ص١١٢.
(٢) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (الأخدود)، ص٥٨٣.

"تتبدى بغداد، حيث ينظر إليها من النهر، عبر غباش الماء شيئا لا يصدق، أو هكذا رآها الناس المركب في ذلك الصباح الربيعي.

بدت، جديدة، طازجة، فواحة بشذى القداح، خاصة بعد أن اغتسل هذا الشذى بالماء وشفته ريح صغيرة نبعت من أعماق النهر وهبطت من الأعالي. أما خضرة النخيل التي ملأت الأفقين، فكانت تتموج وتتغير كل لحظة : شفافة، زاهية ريانة وخضرة قاسية أيضا ولا تخلو في لحظات معينة، من تحد.

وبين خضرة وخضرة عشرات الألوان الخضراء المتشابكة، وكأن كل شجرة، كل غصن يريد أن يتميز بلونه الخاص، بتألقه الذي يجعله مختلفا عن غيره.

قال بدري، وكأنه فوجئ بما يرى وكان يتلفت إلى الضفتين مذهولا :

- ولا عبالك بغداد اللي نعرفها وعايشين بيها!
- إذا الواحد معمى قلبه، وطامس بالوحل للزردوم، شلون تريده يشوف وردة وخزامة، مولانا؟ شوكت يفتح عيونه ويباوع؟
- هكذا رد سيفو، وهو يحاول أن يحزن أكبر من الهواء في صدره، فيبدو الصدر مثل قفص قديم لم يعد يتسع لما في داخله. كان سيفو حزينا وفرحا في آن واحد أو كانت عواطفه مختلطة متداخلة إلى درجة لا يستطيع أن يحدد ما هو أو كيف هو. لم ير بغداد من وسط النهر منذ فترة طويلة أو لم يرها هكذا صحيح أنه ركب الزوارق مرات عديدة لكنه كان يركب ليعبر من ضفة إلى أخرى وكانت عيناه، أغلب الأحيان على الماء حوالي المركب وحتى إذا نظر إلى البعيد فقد كانت المناظر تهتز جامدة قاسية.

الآن من هذا المكان، يبدو كل شيء مختلفا وكأنه يراه لأول مرة". (١)

(١) منيف، عبد الرحمن: أرض السواد، المؤسسة العربية والمركز الثقافي، ط٢، ٢٠٠٠، ج١، ص٤٥٩.

ب. الوصف الداخلي :

يتوجه هذا الوصف إلى داخل الشخصية ويبين سماتها النفسية وصراعاتها الداخلية وهو ما يسميه وليد نجار التحليل النفسي "في الوصف يرسم الكاتب خطوط المشهد أو الحد بحذافيرها وفي التحليل يرسم المشاعر الإنسانية التي تعتري شخصياته" (١)

إن المتتبع للشخصية عند عبد الرحمن منيف يلحظ أنها اتسمت بمميزات نفسية خاصة، غالبا ما التصقت بها في كثير من الروايات، ومن هذه الميزات .

أما الميزات السلبية وأكثر ما تتجلى في مواقف وطرح الآراء وغالبا كانت مصاحبة للشخصيات السياسية فقد كان الدكتور صبحي المحملجي في (مدن الملح الأخدود) محط نفور لشمران صاحب سوق الحلال وحماد بسبب ما اتسم به من تعصب ووثوقية في آرائه وذلك لا يتلاءم مع طبيعتهما وكانت، هذه الصفة مرافقة للدكتور في معظم الرواية لذلك تنتشر بكثرة مثل هذه العبارات عند الحديث عنه.

"ولم يقتنع الحكيم وظل مصرا على رأيه".(٢)

"أخذ الحكيم يعيد ترتيب أوراقه ، كما يقولون. قال لنفسه بأسى : "الإنسان يتعلم من كيسه، لا بد أن يجري ويجرب حتى يصل إلى نتيجة وإلى حالة التوازن الكلية أما الأشخاص الذين يسمون أنفسهم أقرباء أو أصدقاء، أو هكذا يدعون، فغالبا ما يكون الطمع هو دافعهم. الآن لا يمكن الاعتماد إلا على الدم". (٣)

---

(١) نجار، وليد: قضايا السرد عند نجيب محفوظ، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٥، ص٥٣.
(٢) منيف، عبد الرحمن: مدن الملح (الأخدود)، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط٢، ص٤٣٨.
(٣) المصدر السابق ص٤٧٦.

"شعر الحكيم بالزهو والقوة عندما تخلص من هذا الخصم لقد انتظر طويلا إلى أن جاء الوقت المناسب وحين جاء لم يرحم ولم يتسامح "سيكون امثولة للآخرين ويجب أن يعرف الجميع من هو الدكتور المحملجي" هكذا قال لنفسه بنوع من الفخر" (١)

ويتلاقى الدكتور صبحي مع حماد في هذه الصورة فالراوي في الأخدود يقوم بانتقاده ولا يخفى عليه ما اتسم به من تعصب "قال حماد لما بلغه ما حصل في حفلة الحكيم :

- صالح ما يغني من راسه ... يا جماعة!

وهز رأسه وهو يستعرض الوجوه والاحتمالات وأضاف كأنه يكلم نفسه :

- هذا الطبل ما هو طبل رمضان والعيدين وما هو طبل لله!

وحين أشار مساعده إلى ضرورة اعتقال صالح وتأديبه رد عليه بسخرية :

- لا ... اتركوه ما يخالف خله يطبل لأن الصوت يدلنا من أي بير طالع وذلك اللي نريده" (٢)

إضافة إلى ذلك فإن جانبا من الانتهازية قد ظهر في شخصيته من خلال تعامله مع الآخرين إذ كان يمدح بعض الأشخاص الذين لا يستحقون المدح طمعا في منافع شخصية، كما فعل عندما حدث الانقلاب على السلطان خزعل حيث يقول عن حماد والبدو: "طول عمرهم هكذا : مثل السلاحف يختبئون وراء الصمت والفوضى لكي يخفوا عجزهم ولؤمهم وتراءت له صورة الأمير فنر (المثال الحي والقوي للسلحفاء الصحراوية : ساكن غامض ودائم الصمت لا تعرف كيف يفكر أو ماذا يريد حتى السلطان لا يفهمه). (٣)

---

(١) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (الأخدود)، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط٢، ص٥١٠.
(٢) المصدر السابق ص ٥٣٩.
(٣) المصدر السابق ص ٥٩٩.

إضافة إلى ذلك صورت الشخصية في كثير من الأحيان كشخصية لا تثق بمن حولها ويغلب عليها الشعور بعدم الأمان فالدكتور صبحي المحملجي في رواية مدن الملح (الأخدود) راوده هذا الشعور وينطبق هذا على شخصيات رواية أرض السواد وخصوصا الشخصيات السياسية كالملك داود وسيد عليوي (الآغا).

"إذا وصلت بغداد بك أفلح الدنيا فلاحة وبيومين ثلاثة أعرف الاكو والماكو وبالعجل أرد لك الخبر.

رد الآغا بحزم :

- اعرف ما تتقشمر واللي تقوله تسويه بس خاف يصير بينا مثل ما يقولون دزينا سعد ورا مسعود فلا رجع الأول ولا الثاني رد الخبر! ...
- مو شرط تروح براسك خاف أحد يشوفك فنكون بسالفة نصير بسالفة ثانية" (١)

"قال الآغا لنفسه بنوع من الحسرة : (داود لعنة أمكر من إبليس ثعلب في جلد خاروف وما ينصاد إلا من منقاره) وتذكر جملة رددها مرات عديدة الآغا محمود زهاو قبل أيام حين كان يتحدث عن أحد خصومه الأشداء ومن صفاته الحذر الشديد أما كيف استطاع التغلب عليه : (من مأمنه يؤتى الحذر) هكذا قال وقد وصل إليه عن طريق خادمه الذي كان أقرب الناس إليه". (٢)

وعند الانتقال إلى الميزات الايجابية فإنها تظهر عند الحديث عن الشخصية بشكل لافت فمعظم الشخصيات تتمتع بالنزاهة والحكمة وسعة الصدر إلى جانب الاجتهاد والمثابرة والتوازن في حياتها وهذه الصفات التي يقدمها عبد الرحمن منيف تأتي متوافقة مع الدور الذي تؤديه هذه

---

(١) منيف، عبد الرحمن، أرض السواد، المؤسسة العربية والمركز الثقافي ط٢، ٢٠٠٠، ج٢، ص٣٦٩.
(٢) المصدر السابق ص٤٢٢.

الشخصيات في المجتمع كالإصلاح بين الناس، إضافة إلى أن كثيرا منها يمثل الجانب الإيماني في المجتمع فلا بد أن يقدم بميزات إيجابية.

وعند المقارنة بين الميزات الإيجابية والسلبية للشخصية منها تجد أنها بدت غريبة عن المجتمع، ولا يبدو أن هناك توافق بين مبادئها وما تقوم به على أرض الواقع، مثال ذلك شخصية ملا حمادي في رواية (أرض السواد) والواقع أنه لم يكن يخلو من تناقض "أريد منك يا بدري، والجماعة يسمعون كلامك أن يتركوني أن يدخل الرحمن قلوبهم أن يعرفوا : آخرتها موت وبعده حساب وكتاب وأن الملا حمادي يحبهم ويودهم مثل ما يحب نفسه أما الأسطة اسماعيل الذي كان يحلق شعر بدري حين سئل عن الملا حمادي وقد ذكره عرضا فقد رد وهو يبتسم :

- ما تغرك العمايم واللحى، مولانا لأن هذا اللي يتظاهر أنه مسكين خيط ببيته بيوت ومو بس بالمحلة بمحلات ثانية وانتقل لذلك الصوب، ولا تستغرب إذا سمعت بجية ثانية أنه صار شريك لعزرا ابن الجلبي!
- مثل النملة يجمع، ومثل الذي ينهش من هنا وما خلى وما بقى (١)
- وبالمقابل عند تذكر الملا مهدي يختلف الحديث وقد ظهر من مقاطعة سيفو لبدري عندما بدأ يمدح أيام زمان وكيف كان صوت الملا حمادي : بابا انت غلطان، متوهم. انت تحجي عن ملا مهدي ووين هذا الصوت!" (٢)

أما الملا حمادي فمع ما ذكره عبد الرحمن منيف من صفاته السلبية إلا أنه لم يغفل ما اتصف به من ايجابيات مثل رقة القلب.

---

(١) منيف، عبد الرحمن، أرض السواد، المؤسسة العربية والمركز الثقافي ط٢، ٢٠٠٠، ج٢، ص٢٥.
(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٢٥.

"كان يمكن لمثل هذه الرسالة أن تحدث اضطراريا، قد يصل حد الخصومة كما حصل قبل سنين بالنسبة لرسالة حسون غير أن الملك بعد أن قرأ الرسالة انحدرت من عينيه دمعتان وقال للذين حوله إن مثل هذا الكلام لا يكتبه إلا عدو حاسد أو كافر وبعد أن كفكف دموعه وترك فترة من الصمت تمر سأل الذين حوله : صحيح يا جماعة ... ما سألتكم عن أبو فلاح شلونه وشلون أخباره؟" (١)

وهو الأمر ذاته عند النظر إلى أوصاف الشخصيات الأخرى كالدكتور صبيحي المحملجي وحماد في مدن الملح والملك داود في رواية أرض السواد وغيرها من الشخصيات.

نخلص بأن الوصف من أهم الأساليب التي اعتمدها عبد الرحمن منيف لتجسيد الأرض إذ استطاع منذ البداية أن يكون اندماجا بين القارئ والأرض فظهرت وكأنها تتعايش معه بجميع مراحله، فصور لنا الصحراء وطريقة ارتباط أهلها بها في رواية مدن الملح وأرض السواد لنشعر بذلك البعد النفسي والاجتماعي الذي تحدثه الأرض من خلال علاقة أهلها بها.

---

(١) منيف، عبد الرحمن: أرض السواد، المؤسسة العربية والمركز الثقافي ط٢، ٢٠٠٠، ج٣، ص٢٧٤.

٤- الحوار :

"دراسة الحوار تجمع بين البحث في اللغة كفعل والبحث فيها كلعبة بين اللغة المحققة في الاستعمال الفعلي واللغة المحققة في الاستعمال الوهمي.

والحوار هو تمثيل للتبادل الشفهي، وهذا التمثيل يفترض عرض كلام الشخصيات بحرفيّته، سواء كان موضوعا بين قوسين أو غير موضوع. ولغة الحوار هي هم النقد الروائي العربي بامتياز. فالرغبة في بناء لغة الشخصيات الروائية بناء واقعيا يعكس ثقافتها، وبيئتها تفرض أن تتكلم الشخصية بلهجتها ولكن الفرق بين اللغة الفصحى (لغة السرد الروائي) واللهجات العامية (اللغة الواقعية المفترضة للشخصيات) يجعل استخدام العامية نوعا من الثنائية اللغوية داخل الرواية الواحدة.

فإذا أضفنا أن اللهجات العامية تتفاوت كثيرا بين البلدان العربية أمكننا أن نستنتج مقدار الصعوبة التي سيواجهها القارئ المتتبع لإنتاج الروائي العربي.

كتاب الراوية التي شغلتهم لغة الحوار انتهوا الى ما يمكن أن ينتهوا إليه إبقاء الحوار بالفصحى أو استخدام العامية(عامية عاصمتهم) أو اعتماد حل وسط يقوم على كتابة الحوار بلغة فصحى مبسطة (قريبا من تراكيب العامية، غير معربة) وإذا كان استخدام الحوار يهدد الحوار بالتصنع والجمود فان استخدام العامية يشكل خروجا على اللغة الفصحى وتهديدا لمستقبلها.

أما الحل الوسط الذي يستخدمه العربي اليوم للتفاهم مع أبناء العربية الاخرى فعيبه انه لا يعبر عن كلام الشخصيات في حياتها، وانه يلغي فوراق اللغة بين الشخصيات ويضيع على الرواية إمكانية التصوير الاجتماعي للشخصية." (١)

وهذا ما يميز الحوار عن بقية عناصر البناء الفنية الأخرى هو ما يتركه من مجال للشخصية للتعبير عن نفسها دون واسطة إذ يخفف أسلوب الحوار من تحكم السارد العليم ويقلل من سلطته على الشخصيات "فتبلغ الرواية في الحوار درجة من التلقائية الناشئة عن زوال وساطة الراوي بين المتكلم والقارئ (٢) وبذلك تكون الشخصية المشتركة في الحوار نابضة بالحياة تتكلم وتفكر" (٣)

وقد اعتنى عبد الرحمن منيف عناية لافته بالحوار، الذي أصبح شائعا في رواياته وخصوصا الرمزي منها.

بسبب اللجوء إلى التعبير عن الانفعالات لدى الشخصيات الذي طغى على عناصر السرد والوصف في أعماله، وابتداء من الجزء الأول في رواية (مدن الملح التيه) ومن ثمّ (مدن الملح الأخدود)، والجزء الثاني في (أرض السواد)، يكمن تحديد أهم وظائف الحوار للشخصية بالنقاط التالية :

(١) زيتوني، د. لطيف : معجم مصطلحات نقد الرواية، دار النهار للنشر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠٠٢، ص٨٢.
(٢) قسومة، الصادق : النزعة الذهنية في رواية الشحاذ لنجيب محفوظ، تونس، دار الجنوب للنشر، ١٩٩٢، ص٧٧.
(٣) راغب، نبيل : قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٨٨، ص١٣٢.

١. يكشف الحوار عن تعدد الأفكار وتباين الآراء، في خطاب عبد الرحمن منيف ،فمنذ أولى رواياته كان الحوار أداة لإبراز الأفكار المطروحة في الإنسان المنتمي وغير المنتمي لأرضه كما "ويعتبر الحوار – في طبيعته – من الأدوات الرئيسية لإبراز تباين آراء الشخصيات واختلاف لكونه يساعد في تحديد العلاقات والأحاسيس والأفكار". (١)

ويكشف أول حوار في (التيه) عن هذا الأمر إذ افتتح الرواية بالحديث عن وادي العيون والصفات التي اكتسبها الناس فيه من صفات في الجسد وطبيعة الحياة وما جرى بينهم من حوار حول مولد ابن متعب الهذال الجديد (مقبل) ثم إلقاء الضوء على آرائهم التي كانت معبرة عن اتجاهاتهم الفكرية وخوفهم من الأيام القادمة "وقفت هناك سارة : – إذا كبر ولدك فخاوه قالت سارة، وقد أخذ جوها الانفعال والفرح :

- إذا أقبل البخت، يا أبو ثويني، باضت الدجاجة على الوتد.

رد عليها وهو يقهقه :

- وإذا أدبرت، يا سارة، بال الحمار على الأسد.

صرخت وضحة من الداخل وجاء صوتها متعبا مديدا :

- وكلوا الله يا جماعة الخير.

وهذا الحوار يظهر بشكل عفوي فكل واحد يعطي رأيه ويحدد طبيعته فإجابة كل شخص في الحوار تحدد اتجاهه ومنحاه الفكري وبهذه الطريقة تظهر لنا الأبعاد الاجتماعية والنفسية نتيجة لتعارض الآراء وتناقضها فموت ابن الراشد مثلا يظهر لنا هذه الأبعاد التي ما كادت أن تظهر

---

(١) قسومة، الصادق : النزعة الذهنية في رواية الشحاذ لنجيب محفوظ، تونس، دار الجنوب للنشر، ١٩٩٢، ص٧٧.

بشكل واضح إلا من خلال الحوار "ففي معسكر العمال، ما كادت بضعة أيام تنقضي على موته حتى وجد من قال : "الله يرحمه، لأنه أحسن من غيره وأرحم ... والأيام بيننا" وقال آخر "على الميت لا تجوز إلا الرحمة، وابن الراشد تصور أنه سيخلد وطمعه هو الذي قتله". أما عبد الله الزامل فقد قال بصوت عال وأمام عدد من العمال بعد ثلاثة أيام من وفاة ابن الراشد :

يا جماعة الخير، هالحين ابن الراشد راح، مات، صار تحت التراب، والواحد لازم يكون منصف ويقول الذي في قلبه، يقول الحقيقة ...

توقف قليلا، تطلع في الوجوه وأضاف :

أتعرفون من قتل ابن الراشد؟

فلما انشدت إليه العيون قال وهو يهز رأسه :

- الأمريكان هم اللي قتلوا ابن الراشد ...

تطلع إليه العمال باهتمام واستغراب "الأمريكانس هم الذين قتلوا ابن الراشد؟ كيف؟ لماذا؟ بدا الأمر غير قابل للتصديق أو الأقل غير واضح وغير منطقي، تابع ابن الزامل :

- نعم الأمريكان. الأمريكان هم من قتلوه ... وابتسم بسخرية وهو يتطّلع في الوجوه مستمتعا بالدهشة التي ظهرت عليها :
- أكثر من ثلاث سنين وهو يركض مثل كلب يمنة ويسرة هنا وهنا كل شيء يريده الأمريكان "من هذه العين ومن هذه العين" ولا فائدة. لما راح، الله يرحمه، مزبان قالوا : "ابن الراشد" من غرق مزبان؟ ابن الراشد ما هو بمسؤول ابن الراشد ما له علاقة. الأمريكان هم أخذوا مزبان وهم غرقوه و "يا ابن الراشد ادفع، يا ابن الراشد دبر راسك"

هم يقولون قوانين؟ طيب اللي يغرقون ما لهم قوانين؟ ما لهم حقوق؟ مزبان ما له عندنا شيء حتى قشة ما له عندنا ما شفناه ولا عرفناه" وابن الراشد الله يرحمه، الطمع عمى عيونه هبله وصار اللهي صار.

تطلع العمال في وجوه بعض وتطلعوا إلى عبد الله الزامل إنهم الآن يفهمون الكلمات التي يقولها يرونها واضحة لكنهم لا يعرفون ماذا تعني بالضبط. قال أحد العمال وكانوا يسمونه الجرادة لصغر حجمه.

- الأمريكان ما لهم صاحب، مثل الذيب والغنم.

رد عليه آخر وهو يضحك بصوت عال :

- لا ... ما هم مثل الذيب والغنم، وانت الصادق ... مثل الزاد والجراد.
- لا ... مثل الذيب والغنم. الجراد يأكل إلى حين ما يشبع وخويك الذيب يقتل ويجدع.

هكذا رد عليه الأول بعصبيه.

قال ابن الزامل مازحا :

- الأمريكان الذيب وابن الراشد الجرادة.

وضحك بصوت عال أقرب إلى القهقهة وأضاف.

- وأنتم تعرفون ذيك السالفة : لولا الجرادة ما وقع العصفور.

قال أحد العمال بحدة :

- أنت يا ابن الزام قتلت ابن الراشد ظليت وراه حتى دفنته.

- أنا؟ وتغيرت لهجته تماما.

- اخز الشيطان يا رجل.

- لا. أنت نعم أنت اللي قتلته ...

قال أحد العمال وكان بعيدا صامتا كأنه لا يسمع ولا يتابع :

- إذا مات الميت طالت عراقيبه ...

فلما وجد كلمته وصلت إلى الجميع في جو الصمت الذي سيطر وقف. مشى خطوتين وأضاف متسائلا :

- لما ابن الراشد راح وصار تراب صار أحسن منه الله ما خلق؟

نظرت إليه العيون باستغراب متسائلة تابع :

- "والله ما لكم ذمه، يا اولاد العرب كل يوم بوجه وكل ساعة برأي". (١)

وبذلك تتكشف جميع الاتجاهات الفكرية في الرواية عن طريق الحوار فالشخصية ترجع في كل آرائها ومواقفها إلى مرجعيتها.

كما يظهر الحوار جوانب اهتمام كل شخصية فمتعب الهذال أثناء حواره مع سارة يظهر خوفه على وادي العيون، وابن الزامل في حواره مع العمال يظهر همّه أن يمسح تماما صورة ابن الراشد من خيالهم، وكان لحواراته مع العمال الدور الكبير في إعطاء تصور واضح عن نظرة العمال للأمريكان وللعرب وللبدو في تلك المرحلة.

---

(١) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (الأخدود)، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط٢، ص٣٩٩ - ٤٠١.

٢. التعبير عن الأحاسيس والهواجس : فقد كان للحوار دوره الكبير في اظهار أحاسيس الشخصية ومشاعرها الداخلية وقد أظهر في بعض الأحيان الصراع الذي تخوضه الشخصيت بين مبادئها ورغباتها، فظهرت تبعا لذلك شخصية حية شديدة الاقناع، فالحوار يبرز "الأبعاد المظلمة في نفسيات الشخصيات والتي تتحكم في تصرفاتها حيال الآخرين". (١)

إن الحوار التالي بين داود وفيروز يكشف عن الصراع الداخلي عند داود تجاه الآغا والقنصل ويشير إلى التغير الذي طرأ على هذه العلاقة.

"قال لفيروز الذي كان يراقبه من مسافة قريبة :

- لترسل بندقية الصيد الفرنسية التي وصلتنا أخيرا إلى الآغا.
- أمرك سيدي.
- وعسى أن يهديها بدوره للقنصل، كي يفاخر بما عنده من أسلحة جديدة!

وحين ابتسم فيروز ولم يعلق، أضاف الباشا :

- وقل له : مثلما الفرس من الفارس فالبندقية من الصياد.

وابتسم الباشا وهو يقول لنفسه : "الآغا لا يفهم القضايا المعقدة ولا يتذوق النكتة وأضاف يخاطب فيروز :

- وقل له : ليكثر من الصيد، فالباشا سيكون ضيفه! (٢)

---

(١) راغب، نبيل: قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٨٨، ص٧٥.
(٢) منيف، عبد الرحمن: أرض السواد، المؤسسة العربية والمركز الثقافي ط٢، ٢٠٠٠، ج١، ص٢٩٧.

كما كان الحوار أداة من الأدوات المهمة للراوي في رواية مدن الملح وأرض السواد للكشف عن نفسية الملك داود والدكتور صبحي المحملجي والآغا سيد عليوي وغيرهم من الشخصيات وما اتسموا به من تعصب في الرأي حيث ظهر ذلك من خلال مناقشاتهم عن طريق الحوار التالي :

"قال الحكيم وقد تمثلت له مشاكل كثيرة :

- المهم أن نؤمن (قاعدة)، أن نكون مطمئنين إلى مكان الإقامة، أي يكون الواحد عنده أرض وبعدها كل المسائل تهون.
- هذه مسألة بسيطة يا بابا.
- بسيطة؟
- أي نعم ... يمكن تختار أي مكان للإقامة والحياة.

قال الحكيم بنزق :

- أو للقبر ...
- لا قدر الله يا بابا". (١)

فيروز وهو يتبادل النظرات مع خلف كان يحرضه لأن يتكلم لأن يروي للباشا ما حصل. حيث وجده صامتا كأنه يتهرب من هذه المهمة قال :

- عند العصر قطع الشيخ شمسي المهر وقبل ما ينتهي الحفل طبت مريم الشركسية آخر زوجاته قبل الجديدة، على المجلس ودبت الصوت : منها كلمة ومنه كلمة وانلاصت : بكى وشق هدوم وهلاهل وكل واحد يجر من صفحة عبالك طهور كاولية وما خلصت القضية إلا بألف ويلاه!

---

(١) منيف، عبد الرحمن: مدن الملح (المنبت)، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط٢، ص٢٠٤.

رد الباشا (داود) وهو يهز رأسه هزات لوم وتأنيب :

- كل هذا يحصل وآني ما أدري؟

قال خلف في محاولة للتبرير :

- ما ردنا ندوخ رأسك بهذه المكسرات يا باشا!
- يخلف عليك يا خلف، فإذا كان مثل هذا الشيء يحصل بأقرب مكان إلي ومع نائبي وما أدري فلا بالله نحن بألف خير!

وبعد قليل وكي يسمع خلف وغيره أضاف :

- هسه هذي فاتت لكن بعد اليوم إذا طير مر لازم أعرف لازم أحد يقول لي!

أما حين علم الآغا بزيارة بدري لروجينا فقد أطلق لسانه في إحدى الليالي أمام عدد من ضباطه :

- ما ينعرف : أين علو جا يم روجينا يتونس أو يتحسس؟

ولما لم يجبه أحد يتابع :

- يحسبون أنهم وحدهم اللي يقدرون ... لكن باجر أو اللي عقبه راح بعيونهم يشوفون!
- هذول اللي يلقلقون بالأمثال والأشعار والواحد منهم ما يخش لسانه بحلقه وبين كلمة والثانية قال الله قال رسول الله هذول يخوفون ولازم الواحد يحسب لهم ألف حساب!" (١)

---

(١) منيف، عبد الرحمن: أرض السواد، المؤسسة العربية والمركز الثقافي ط٢، ٢٠٠٠، ج١، ص٥٣٩.

أما فيما يختص بلغة الحوار فلم يلتزم عبد الرحمن منيف في رواياته (مدن الملح وأرض السواد) باللغة العربية الفصحى وجنح إلى استخدام العامية واللهجة المحلية السائدة وخصوصا في العراق حتى بين الأفراد من الطبقة المتعلمة والمثقفة مما يستفز القارئ من غير المناطق التي لا تفهم اللهجة العراقية والحجازية.

وهذا الأمر قد يشمل الشخصيات في الرواية فمثلا الدكتور صبحي المحملجي عندما أراد أن يتحدث باللهجة المورانية لم يستطع "الحكيم الذي بذل جهدا واضحا لكي يتحدث باللهجة المورانية، لم يتقنها أبدا، بل وبدت للكثيرين مضحكة وأقرب إلى السخرية فلم يطل به الأمر حتى انصرف عنها مضطرا وإن تسبب له ذلك بمرارة لا تخفى. وفي محاولة غير مباشرة للرد على الشيخ مالك هجر لهجته الأولى ولجئ إلى العربية الفصحى بمخارجها وقلقلاتها وبالغ في ذلك حتى ليظن من يسمعه لأول مرة أنه واعظ". (١)

من خلال هذا النص يظهر عبد الرحمن منيف عدم اهتمام باللغة الفصحى حتى للشخصيات المثقفة في الرواية.

الحوار ذا أهمية بالغة في تقديم الشخصية في روايات عبد الرحمن منيف وقد اتسم حوار الشخصيات في أغلب روايات عبد الرحمن منيف بمميزات اعطته شكلا خاصا ووضعا مختلفا عن بقية الحوارات وربما كانت النقاط التالية قادرة على اعطاء صورة متكاملة لأبرز هذه المميزات :

٣. شيوع التعبيرات التراثية وتغيرها حسب طبيعة الشخصية وأفكارها ومواقفها ومنها : "جدي لعب بعقل تيس" (٢)

---

(١) منيف، عبد الرحمن: مدن الملح (الأخدود)، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط٢، ص٢٤٦.
(٢) المصدر السابق ص٩٢.

"والواحد يدور راس النبع ويقصده" "الباب الذي يأتيك منه الريح سده واسترح" (١)

أما الشخصيات في أرض السواد فلها مصطلحاتها المميزة والتي تتوافق مع تفكيرها ومع وظيفتها في المجتمع فها هو حوار بدري مع سيفو في محاولة رؤية نجمه في قلعة ثامر المجول مثالا على ذلك.

"جمع بدري نفسه تنحنح أكثر من مرة استعدادا لأن يبوح :

- أنا متورط، يا أبو فلاح شفت بنية، شلون بنية تاخذ العقل ومن يوم ما شفتها وصورتها ما تغيب عن بالي لا بالليل ولا بالنهار.

كان سيفو يسمع ويهز رأسه للحظات ظن أن بدري يهذي إذ لا توجد علاقة بين الذي يقوله الآن وما بدأ به الحديث.

سأل وبدا صوته بين المرارة والسخرية :

- راح تخبلني، لأنها انلاصت علي. بدينا بمركب مع ملاح زين وبعدها تحجي لي عن بنية، ما تفهمني وين رباط الحجي؟ شجاب هذى على هذي؟
- القصة طويلة لكن بالمختصر المفيد : هذي البنية الله أعلم نازلة بالقلعة وأريد أن أتأكد!
- نازلة بالقلعة؟ شينو اللي جابها على القلعة؟ شتسوي هناك؟
- رجلها يشتغل بالقلعة!
- وهمين متزوجة وعندها رجال؟

---

(١) منيف، عبد الرحمن: مدن الملح (الأخدود)، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط٢، ص٢٤٧.

- أي نعم ... لكن ...
- تعرف ثامر المجول؟ سمعت به؟
- منو ما بعرف ثامر المجول يا معود. هذا أشهر من نار على علم!" (١)

إذا نلاحظ من خلال الحوار السابق بعض المصطلحات في اللهجة العراقية التي لا يستطيع فهمها إلا من كان لديه خبرة في اللهجة العراقية والملاحظ أيضا أن الحوار بين الشخصيات في أرض السواد يظهر عدم اختلاف في مستوياتها الثقافية والمجتمعية على خلاف مدن الملح.

٤. اللهجة اليقينية القاطعة في الحوار بحيث لا تتحمل الآراء التي يقدمها التشكيك ويكون تبعا لذلك غير قابلة للمناقشة واستقبال الآراء الأخرى، ومثالها حديث أم حسني مع ابنها التي كانت تستعد للقاء الشيخة "– رضاي عليك يا ابني ... لأن غرفة الأكل مسحتها قبل شوي وأرضها مبلولة.

قال وهو يزفر مثل الثور :

- الحق علي انا اللي صغرت عقلي وجيت ... وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه :
- نحن مع الناس العاديين ما ماشي حالنا، وكأنه كان ناقصنا اميرات وشيخات.
- يا ابني الواحد لازم يماشي زمانه، وكل بلد ولها عاداتها وكل انسان وله مقام هزت رأسها وابتسمت بتوسل ثم أضافت :
- وهي مرة في العمر، يا ابني، وتمضي.
- يا ريت يا أمي لكن هذا الدرب طويل درب ما له آخر!
- لا يا ابني، مرة فتمضي.

---

(١) منيف، عبد الرحمن: أرض السواد، المؤسسة العربية والمركز الثقافي ط٢، ٢٠٠٠، ج١، ص٤٣٧.

- طيب بسيطة، بنشوف!" (١)

٥. ظهرت أحيانًا فجوة بين الشخصية والطرف الآخر الذي تحاوره في رواية مدن الملح على خلاف الحوار في أرض السواد مما يشير إلى أن اهتمامها وتفكيرها مخالف لبقية الشخصيات.

وهذا الملمح واضح من خلال حوار الدكتور صبحي المحملجي مع السلطان خزعل "يا صاحب الجلالة توصلت إلى اقتراح يرضيكم. توصلت إلى الرجل المناسب.

- من؟ – حماد المطوع – حماد المطوع ...؟ ابن ابراهيم أو ابن صالح المطوع؟
- ابن صالح المطوع يا صاحب الجلالة. – أنا أعرفه؟ شفته؟ – يوم الخميس الماضي كان بالديوان، يا صاحب الجلالة وهو رد الأعمى وقال له راجع دار الإمارة.
- أي نعم ... أي نعم ... تذكرته. – ومن اللي شار عليك؟
- وضحك الحكيم قبل أن يجيب :
- والله يا صاحب الجلالة، قلبي هو اللي أشار علي.

قهقه السلطان وهز رأسه عدة مرات ثم قال :

- إذا كان شور القلب، يا حكيم، فالقلب ما يكذب وما يخطئ!

قال الحكيم وهو يتنهد :

- يا صاحب الجلالة : العمل الذي سيقوم به صعب وسهل وهذا العمل بالذات يحتاج إلى بالدرجة الأولى، إلى ثقة، إلى الأمانة وحماد كفؤ وصغير السن وتعرف يا طويل

---

(١) منيف، عبد الرحمن: مدن الملح (الأخدود)، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط٢، ص٣١١ - ٣١٢.

العمر أن عائلة المطوع عائلة ميسورة ولذلك يمكن أن يربى في ظل جلالتكم ويكون أكثر الناس إخلاصا. (١)

نلاحظ الفجوة بين الحكيم والسلطان مع أن السلطان مع أن السلطان على علم بعائلة المطوع وعدم اقترابها من الحكم إلا أنه انصاع لرأي الحكيم.

أما داود باشا في رواية أرض السواد فلم يكن بينه وبين حاشيته تلك الفجوة التي كانت في السلطان خزعل (مدن الملح).

"كان داود يقول، بعض الأحيان، أمام خاصته : "سعيد حقير ومغرور لا يعرف صديقه من عدوه" وحين يتذكر بعض تصرفاته يضيف "حاولت معه أكثر مما حاولت مع أي انسان آخر لكن لا حياة لمن تنادي لا يسمع ولا يستجيب وقد حان الوقت لكي يدفع الثمن غاليا" (٢)

"في وقت سابق حين جرت محاولات من قبل أهل الخير لمصالحته وسعيدكان يرد على الذين يحاولون :

- يا جماعة الخير: كل ما أريده منه أن يتركني، أن ينساني وبغداد تسعنا نحن الاثنين وتسع الآلاف غيرنا.

فإذا ازداد الإلحاح وكان من الذين يثق بهم يرد على محاولات المصالحة :

- أنا غسلت ايدي منه يا جماعة لأن قلبي انشلع وأنا أحاول لكن بليا نتيجة بليا قبض ... يستريح قليلا ثم يضيف فيأتي صوته مختلفا :

---

(١) منيف، عبد الرحمن: مدن الملح (الأخدود)، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط٢، ص١٠٥.
(٢) منيف، عبد الرحمن: أرض السواد، المؤسسة العربية والمركز الثقافي ط٢، ٢٠٠٠، ج١، ص٣٢.

- اسرحه ويا الغزلان يرجع ويا الثيران. أقول له خصي يسألني كم ولد عنده!

وتتغير لهجة داود :

- لو، الله يرحمه، سليمان باشا، بال بولة كان أحسن من أفندي الكاغد اللي خلفه لكنه هو جابه وراح، ونحن ابتلينا!" (١)

ومما زاد من حجم الفجوة بين شخصية الدكتور والسلطان في الحوار هو اهتماماتهما المختلفة وتطلعاتهما المتباينة حيث يتحرك كل منهما في عالم خاص به.

من خلال استخدام عبد الرحمن منيف للحوار في أعماله الأدبية أخضع اللغة كي تخدم موضوعه، فالمنطقة التي تدور فيها الأحداث وطبيعة الشخصيات التي استخدمها عبد الرحمن منيف لإدارة هذه الأحداث، تفرض عليه استخدام لغة معينة، إذ أن المنطقة التي يتحدث عنها أقرب إلى البداوة والحياة التي يعيشونها بسيطة، قريبة من الحياة البدائية لذلك لجأ إلى استعمال اللهجة العامية في الحوار لأنها الأكثر قربا ودقة وصدقا مع هؤلاء الأشخاص وأية لهجة أخرى لكي تكون مقنعة خاصة في مستوى الناس والبيئة التي تدور فيها الأحداث لا يمكن أن تعتمد لهجة فصيحة أو مستوى من الخطاب، لتجاوز مستوى إدراك هؤلاء البشر. (٢)

---

(١) منيف، عبد الرحمن: أرض السواد، المؤسسة العربية والمركز الثقافي ط٢، ٢٠٠٠، ج١، ص٣٣.
(٢) منيف، عبد الرحمن: الكاتب والمنفى، هموم وآفاق الرواية العربية، دار الفكر الجديد، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٢٥.

٥- اللغة :

هاجس اللغة يشغل الكاتب الذي يحاول إبعاد السطحية عن روايته وإبعاد الإطناب الذي لا يجدي أو اسهاب يغطي جمالية النص كما يحدث في حوارات طويلة دون مبرر أو مشاهد تعرض قضايا مباشرة لا تخدم موضوع السرد، وبسبب ذلك تبتعد اللغة عن وظيفتها الفنية وتفقد خصائصها الأدبية وبدل أن تكون الجملة الفنية محكمة تتحول إلى جملة خالية من الابتكار أو التعبير الذي يتلاءم مع السرد والكتابة.

والرواية المنفتحة بلغتها الأسلوبية التخيلية هي الأجدر على استيعاب أسئلة الكتابة الروائية والإبداع الأدبي عموما، وكذلك الأسئلة التي ينتجها الواقع الذي تشكل قضاياه موضوع الرواية الأساسي في الإبداع الأدبي ، وهي مسار لبناء النص الروائي بعناصره وأركانه.

إذًا، بحكم أنّ الرواية أدب منفتح على الأنماط الأدبية والأفكار والمواقف، لا بدّ أن تكون لغتها لغة التعدد والتمثيل والوعي، أي أن تكون لغة أدبية مبنية على تنوع الألفاظ ووجهات النظر وتعدد الأفكار، ومن وظائفها أيضا تجسيد وعرض الأفعال والأقوال بصورة تظهر الرواية، كأنّها تمثيلية تحدث أمامنا، فنرى الشخوص بألوانها وحركاتها ونسمع أصواتها وهي تتحاور وتتبادل الحديث فيما بينها، وعليها أيضًا تجسيد ثقافة الكاتب ووعيه بالأسس التي تقوم عليها اللغة بما يقتضه السرد الروائي وبناء الرواية بكل مكوناتها الفنية .

اللغة بهذه الصفات توضح قضايا الواقع الاجتماعي ومظاهر الحياة الإنسانية والتصرفات البشرية المختلفة وبذلك تبني عملا ابداعيا متطورا .

للغة في الرواية واجبات تميزها عن الأجناس الأدبية الأخرى مثل: الشعر والمسرح: وأبرز واجباتها :

_ الوظائفية : فاللغة بوصفها صورة الفكر وأداته، بل هي في الرواية لا تصور وحسب، بل هي موضوع تصوير كلمي (١). على هذا انتقلت اللغة من كونها أداة إلى كونها موضوعا. ومن هنا تظهر أُولى واجباتها في تصوير التمايز والنبرات في اللهجة وطبيعة المهنة التي تعمل بها الشخصية داخل الرواية بعيدا عن نظام اللغة المعيارية الموحد .

وبسبب ذلك يظهر ثاني واجبات اللغة، وهو إبراز وجهات النظر المتباينة حيث "لغة الرواية وجهة نظر، هي أفق اجتماعي، ايديولوجي، لمجموعات اجتماعية فعلية وممثليها المجسدين"(٢)

أمّا الواجب الثالث: فيتمثل في فعالية أبعادها المتناغمة ما بين الإبلاغ(الحيادي)، والتعبيري (الانفعالي)، والتجريدي(الفلسفي)، والحسي (الواقعي)، والحقيقي(المباشر)، والمجازي(غير المباشر)، وغالبا ما يؤدي تغلب بعضها على بعضها الآخر الى الالتزام بنمط محدّد وإلى الرتابة.(٣)

وعند تطبيق هذه المحاور على أعمال عبد الرحمن منيف، يظهر أن لغة المؤلف(الراوي) تطغى على لغة الشخصيات الأخرى، فمثلًا لا يمكن التمييز بينها وبين لغة (بدري ، وسيفو) أو حتى تسويغها فنيا. يختم عبد الرحمن منيف عباراته الفنية بعبارة ذات مغزى: "بدأ المركب رحلة العودة ، الى بغداد، وقد طالت كثيرا"(٤)

---

(١) بختين، ميخائيل: الكلمة في الرواية، تر، يوسف حلاق، ط١،وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٨م، ص٢٤٢.
(٢) المرجع السابق، ص٢١٥.
(٣) غرناط، محمد: لغة الرواية، مجلة اتحاد كتاب الإنترنت، المغاربة، الأربعاء،٢٣- ٢- ٢٠١١.
(٤) منيف، عبد الرحمن، أرض السواد، المؤسسة العربية والمركز الثقافي ط٢، ٢٠٠٠، ج١، ص٤٧٨.

يتميز خطاب(بدري وسيفو والملا خضير والأسطة اسماعيل)، بمفرداته وتراكيبه وتعبيراته عن نسق المؤلف (الراوي) في هذا النص " والتفت الى الأسطة إسماعيل الذي استمر واقفا ،وهو يتابع الحوار :

_ تفضل استريح أبو حقي، هذا أولا ، وبعدها: السالفة من الأول للتالي، ويجوز مثل كل مرة، أن هناك نية للزواج ، تصير ما تصير، الله أعلم، فقولوا إن شاء الله، خلي البك يوافق، وبعدها كل شيء سهل!

قال خضير ليخلق جوا:

_ راح يوافق، مولانا، لانا نريد نشتغل؛ وأول شغلة يسويها الواحد أبد ما ينساها!

ردّ سيفو بمداعبة :

_ أي نعم، مولانا، خاصة هذي الشغلة، لان بيها كسران رقبة، كسران ظهر فشلون ينساها؟

_ وزيان العرس على أبو حقي ببلاش!

قال بدري، قررت، وأقول أي وأنتم شهود ! _ راح ازينك زيان بعمرك ما تنساه، بس انت قرر، قول : أي !

قال سيفو، وكأنه يكلم نفسه ، لكن الجميع يسمعون:

_ على بركة الله، بس لازم تعرف مولانا : الخشة للحمام مو مثل الطلعة منه! (١)

---

(١) منيف، عبد الرحمن: أرض السواد، المؤسسة العربية والمركز الثقافي ط٢، ٢٠٠٠، ج٢، ص٢٩-٣٠.

إنّ هذا الجو الشاعري الوجداني الذي تشيعه مثل هذه اللغة في جسد النص، وفي بعض المشاهد، ضرورة فنية تتناسب مع واجبها الجمالي ومع خطاب النخب الثقافية وتصبح بذلك دليلا على التنوع الاجتماعي والطبقي واللغوي لخطاب الشخصيات المتنوع لغة وفكرا ورؤية وموقعا وتحوله إلى خطاب جماعي وهذا كان واضحا في روايتي عبد الرحمن منيف (مدن الملح و أرض السواد) اللتين تطغى فيهما لغة الكاتب الحقيقية في السرد والوصف ، أما في الحوار فقد أهتم عبد الرحمن منيف برصد الشخصيات وعوالمها النفسية ولم يركز على الراوي في روايتيه ومع استخدامه صيغة الغائب في السرد جعل لغة تلك الشخصيات مختلفة في أدائها ونبرتها ، حتى إنها تبدو لغة الشخصيات المعيارية لا لغته .

لقد استثمر عبد الرحمن منيف تنوع اللهجة واللغة الصحراوية والمدنية في حوار شخصياته، ممّا أضفى عليه فنية تظهر التكوين الثقافي للشخصية على حساب المستوى المعياري للغة، الذي لا يظهر التنوع الفردي والاجتماعي لكل شخصية، وهذا ظهر في رواية مدن الملح (المنبت) في الحوار الذي حدث بين الدكتور صبحي وابنه غزوان عندما ذهب لزيارة موران بعد الانقلاب الذي حدث على السلطان خزعل "يا سيدي لا بدي ياهم ولا بدي يذكروني، المهم ينسوني، ولا كأني كنت، والواحد إذا عمل خير لا ينتظر عليه الأجر، وأنا عملت خير ورميته في البحر، ما انتظرت الاعتراف بالجميل ولا بالشكر، ومع ذلك الأيام بينا، بسيطة! .

ضحك غزوان في محاولة لأن يغير الجو، وأضاف بعد قليل :

_ بسيطة يا بابا والموضوع كله ما بيحرز .

_ يا سيدي بسيطة، هذا ما هو أول خازوق، ولا رح يكون الأخير واللي يعيش ياما يشوف!"(١)

لقد جاءت المشاهد الحوارية باللهجة المحلية، لتقول الشخصية ما تقوله بالواقع محملا إياها خطابها الكلامي الوصفي لا خطابها المعياري؛ لتتناسب مع منطوق شخصياته في مواقف مختلفة كما في المشهد الحواري السابق.

إن استعمال ألفاظ مثل:(خازوق، ياما يشوف، بسيطة) تبدو قريبة لواقع الشخصية في الحياة اليومية، ولم تكن أقرب إلى لغة الرواية التاريخية التي تمثل صوت الكاتب وصوت شخصياته.

ومن الواجبات اللغوية التي حرص عبد الرحمن منيف على إبرازها في روايتي (مدن الملح و أرض السواد) التنوع اللغوي : أي، تنوع اللغات واللهجات والنبرات، وهذه الصفة هي سمة للرواية متعددة الأصوات، وبحسب ما يذهب اليه باختين "لا توجد في الرواية لغة واحدة، بل لغات تقترن فيما بينها في وحدة أسلوبية خاصة ، وليس في وحدة لغوية إطلاقا".(٢)

وهذه اللغات كما يرى هي لغات أجناس أدبية، وأجيال، وذوي كلمة مسموعة، وحلقات، وأيام، بل ساعات اجتماعية سياسية، وهي بدورها تتنوع حسب المهنة، إلى لغة المحامي، والطبيب، والتاجر، والسياسي، والمعلم. وبعد هذا التنوع الداخلي لكل لغة في كل لحظة من لحظات وجودها الاجتماعي هو المقدمة للجنس الروائي . (٣)

وهذا ما نجده في روايتي عبد الرحمن منيف (مدن الملح وأرض السواد) التي يحاول من خلالها تبسيط الفصحى وتفصيح العامية من جهة وإبراز اللهجات الفردية والاجتماعية والمهنية ،

---

(١) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (المنبت)، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط٢، ص١٨٩- ١٩٠.
(٢) بختين، ميخائيل: الكلمة في الرواية، تر، يوسف حلاق، ط١،وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٨م، ص٢٤٢.
(٣) المرجع السابق، ص١١- ص٤٦.

ومن جهة ثانية في رواية مدن الملح (المنبت) يهجن الحوار بالعامية دون أن يلغي التباين الفردي في النبرة بين شخصية وأخرى ، كما في المشهد الحواري التالي الذي يظهر فيه السلطان بعد عزله:

"يزفر بحرقة ثم يتابع :

_ اسمع يا ابن سحيمان: تبرق لهم هالحين، نعم هالحين: إمّا يجوني، وخاصة فنر، يجي و يحب يدي ويقول اخطيت واطلب السماح، أو اركب طيارتي وامشي، وهناك إذا تواجهنا نتحاسب، لكل حادث حديث.

وحين يهز ناصر السحيمان رأسه دلالة الموافقة، ويحاول أن يجمع نفسه لكي ينهض وينفذ الأمر، يسأله السلطان :

_ الألمان الخنازير، قالوا لك : نقبله، ونوافق على اقامته، لكن بشرط: ما يشتغل بالسياسة؟

ويهز ناصر رأسه للتأكيد، فيهدر صوت السلطان:

_ يخسون ما نريدهم ولا نريد ديرتهم .

وبعد قليل:

_ لا هم ولا غيرهم يقولون لنا شنهو اللي يلزم نسويه. حنا شورنا من راسنا، ما هو مثل غيرنا، ونسوي اللي نريده.

ويخيم الصمت من جديد، يصبح ثقيلا مرهقا، فيحاول زيد أن بجد مخرجا:

- نزوة شباب يا طويل العمر، وتنقضي." (١)

وكثيرا ما نعثر في أعماله على مفردات بين العامية والفصحى، كما في رواية مدن الملح (المنبت) ومثال ذلك: (خازوق ، تبرق ، شنهو ، يا طويل العمر، نزوة شباب).

ولم يتوان عبد الرحمن منيف في رواية (أرض السواد) عن توظيف بعض المفردات العامية التي تنوّع السّرد باللهجة العراقية المحلية، التي تظهر من خلالها خصوصية البيئة الاجتماعية والثقافية واللغوية مثل: (الاكو والماكو) وظهر في روايتي عبد الرحمن منيف تنوع في دائرة الشخصيات ومنابتها ومشاربها، وعكس هذا التنوع البيئي تنوعا لغويا وثقافيا أسهم في إغناء السّرد وتوسيع دلالته.(٢)

ومن الأمثلة عليه أيضًا: شخصية الملا حمادي في رواية أرض السواد " قال لبدري وهما يجلسان في الفسحة السماوية، تحت شجرة النبق، وكان منفعلا :

- الشكوى لغير الله مذلة، يا بدري افندي، استرسل:
- يجوز آني ما اعرف اتصرف، ما أعرف أتعامل مع الأوادم، لكن اتمنى لو تشوف قلبي ...

ارتبك وكأنّه لا يعرف كيف يتابع، وقد اختلطت في ذهنه كل الأمور بعد فترة صمت طويلة بدأ من جديد:

---

(١) منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (المنبت)، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط٢،ص٢٣.
(٢) منيف، عبد الرحمن، أرض السواد، المؤسسة العربية والمركز الثقافي ط٢، ٢٠٠٠، ج٢، ص٢٩-٣٠.

_ ما اريد اقول. يا بدري أفندي إن جماعة المحلة زنادقة، كفرة وقلوبهم ما تعرف الرّحمة، وآني وحدي الخوش آدمي، ما اقدر والعياذ بالله أقول هالشكل كل الناس خير وبركة."(١)

إن التنوّع الكبير في شخصيات عبدالرحمن منيف في الميول والانتماء من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار في روايتي (مدن الملح و أرض السواد) يدل على تنوع لغوي اجتماعي منظم فنيا وعن تباين اللغات واللهجات والاصوات والنبرات والاتجاهات الفكرية، وهو ما يحقق أدبية الرواية، بوصفها لغات أجيال و أفراد ذوي نفوذ، وغالبا يرافق هذا التنوع تعدد أصوات الرواة ومواقفهم الاجتماعية، والطبقية، والسياسية مما يمنح عالمها ثراءً فنيًا ودلاليا ممتعا.(٢)

---

(١) منيف، عبد الرحمن، أرض السواد، المؤسسة العربية والمركز الثقافي ط٢، ٢٠٠٠، ج٢، ص٢٢.

(٢) جعفر، نذير: اللغة في الرواية: مستوياتها ووظائفها، منتدى القصة العربية، ٢٩- ٥ -٢٠١٠.

الخاتمة

يعد عبد الرحمن منيف من أبرز الأدباء العرب على صعيد الكتابة الروائية؛ وذلك انطلاقا من الموضوعات الإنسانية والقومية التي طرحها في أعماله الروائية ابتداء من رواية "الأشجار واغتيال مرزوق" وانتهاء بـ "أرض السواد" سواء أكان النظر في انتاجه على مستوى اهتمامه بالأرض وقضاياها وأثرها في الإنسان أم على المستوى الفني الإبداعي .

وقد بينت هذه الدراسة أن روايتي مدن الملح وأرض السواد" جاءت مرحلة مكملة لمسيرة عبد الرحمن منيف الروائية، فهما ذات صلة مباشرة بالقضايا التي طرحها في أعماله الأخرى كغياب الوعي الديمقراطي في المجتمع العربي ومفردة السجون وامتدادها وآثارها وما يصيب حامل لوائها من ظلم واضطهاد وتعذيب، "ومن الملح وأرض السواد" في هذا الميدان لا تحمل تغيرا في مواقف عبد الرحمن منيف من قضايا المجتمع بل هي تجسيد واضح يؤكد عمق المبادئ التي آمن بها على الدوام مهما تغيرت الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

قد تكشف الدراسة أيضا عن وعي عبد الرحمن منيف تجاه مفردات الأرض العربية من مكونات طبيعية وعادات وقيم إنسانية، فتتعدى بذلك الرواية دورها الفني إلى أن تصبح جدارية إنسانية تؤرخ لفترة زمنية عاشتها الأرض العربية بكل أجناسها ومعتقداتها بأسلوب فني ربط فيه الكاتب بين الأرض والانسان .

وقد استطاعت الدراسة من خلال التحليل الفني لروايتي عبد الرحمن منيف بيان المستوى الرفيع لقدرة الكاتب على استخدام التقنيات الفنية الممثلة بالسرد والشخصيات، والوصف، والحوار، واللغة، وكيف تضافرت جميعا في إبراز ثنائية الارض والانسان وتجلي الافكار التي يريد الكاتب توضيحها.

وقد تمثلت هذه الافكار بعدة امور منها:

_ التأكيد على اهمية المحافظة على الارض؛ لأنها تمثل الهوية والتمسك بالمبادئ والعادات، التي تظهر رقي المجتمع وتقدمه.

_الارض لا يمكن لها ان تنمو وتتطور دون انسان .

_ للسلطة دور كبير في المحافظة على الهوية و(الارض).

وكل ما اتمناه ان تكون هذه الدراسة قد اجابت عن الاسئلة الكثيرة التي ولدتها الدراسة أو تكون قد أثارت أسئلة أخرى سيجد حلها الباحثون في المستقبل.

المصادر

– منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (الأخدود)، المؤسسة العربية للدراسات ط٢، ١٩٨٦.

– جبرا، ابراهيم جبرا، منيف، عبد الرحمن، عالم بلا خرائط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٩٢.

– منيف، عبد الرحمن، الكاتب والمنفى، هموم وآفاق الرواية العربية، دار الفكر الجديد، بيروت، ١٩٩٢.

– منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (تقاسيم الليل والنهار) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ١٩٩٩.

– منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (المنبت) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ١٩٩٩.

– منيف، عبد الرحمن ، لوعة الغياب، المؤسسة العربية للدراسات والمركز الثقافي العربي، بيروت، ط٢٠٠٠.

– منيف، عبد الرحمن، ارض السواد، الناشران المؤسسة العربية والمركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٢.

– منيف، عبد الرحمن، مدن الملح (التيه) المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ط١٠، ٢٠٠٣.

المراجع

- أبو عوف، عبد الرحمن: الرؤى المتغيرة في أدب نجيب محفوظ، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب،١٩٩١.

– ابن فارس : معجم مقاييس اللغة، المجلد الأول، دار الكتب العلمية، إيران، ١٩٨٠.

– ابن منظور : لسان العرب، المجلد الثامن، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠.

– ابن منظور : لسان اللسان تهذيب لسان العرب، ج٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣.

– بختين، ميخائيل: الكلمة في الرواية، تر، يوسف حلاق، ط١،وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٨م، ص٢٤٢.

- الجوهري، اسماعيل بن حماد، الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٧٩.

– الحاج شاهين، سمير، لحظة الأبدية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١.

– الحمداني، حميد : بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩١.

– راغب، نبيل : قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٨٨.

– رولان بارت وآخرون : طرائق تحليل السرد الأدبي، الرباط، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ١٩٩٢.

– زيتوني، د. لطيف : معجم مصطلحات نقد الرواية، دار النهار للنشر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠٠٢.

– سيزا قاسم : بناء رواية دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، القاهرة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤.

– الشيخ، خليل : السيرة والمتخيل قراءات في نماذج عربية معاصرة، عمان، أزمنة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

– صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢ .

– علوش، سعيد، الواقع والمتخيل والمحتمل في كتاب الرواية العربية واقع وآفاق، ابن رشد للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٨١.

– فضل، د. صلاح : بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، ١٦٤، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ١٩٩٢.

– قاسم، نبيه، الفن الروائي عند عبد الرحمن منيف، دار الهدى للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٥.

– قسومة، الصادق، النزعة الذهنية في رواية الشحاذ لنجيب محفوظ، تونس، دار الجنوب للنشر، ١٩٩٢.

– مرتاض، عبد الملك : في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، الكويت، عالم المعرفة، ١٩٩٨.

– منيف، عبد الرحمن، جريدة العمل التونسية . الملحق الثقافي، عدد ٩٩، ١٩٨٣/٦/٣٠ (مقابلة أجراها معه يوسف سلامة).

– النابلسي، شاكر، جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٤.

– النابلسي ، شاكر، مدار الصحراء، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط١، ١٩٩١.

– نجار، وليد، قضايا السرد عند نجيب محفوظ، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٥.

الصحف والمجلات

- جعفر، نذير: اللغة في الرواية: مستوياتها ووظائفها، منتدى القصة العربية، ٢٩- ٥ -٢٠١٠.

– حمد، إنصاف، المرأة والموروث الثقافي، مجلة المعرفة، رقم العدد٤٦٣.

– داودي، سامية، ميخائيل باختين الرواية مشروع غير منجز، مجلة المغرب، العدد رقم ١٣، ٢٠١٣.

– د. سيف، وليد، جريدة الرأي الأردنية، ١٩٨٣/٩/٢١، حوار مع الدكتور سيف .

– الرياحي، نجوى، الحلم والهزيمة في رواية عبد الرحمن منيف، مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، مجلد(١١١)، العدد٨، ١٩٩٥.

– زيادة، معن، كيف تتغير ثقافة المجتمعات ولماذا، مجلة الواحدة، العدد ٢٨٦.

– الشحات، محمد، قراءة في روايات المنفى العربية عبد الرحمن منيف نموذجا، مجلة المدى الثقافي، العدد٢٧٠، ٢٠٠٤.

– الشريف حبيلة ، قضية الشكل في الرواية، مجلة البيان الكويتية، العدد ،٤٦٥ ابريل ٢٠٠٩ .

– صحيفة الأيام البحرينية . منوعات . العدد ٩٣٤٣، السبت ٨، نوفمبر، ٢٠١٤ .

– الطاهر، بلحيا (الرواية الجديدة – ملامحها الفينة العامة) مجلة الراوي، العدد رقم ١٧، ٢٠١٧.

– العيدروس، علي حسن (المكان والهوية وهوية المكان) صحيفة المدينة ٢٠١١/٤/٦ .

– غرناط، محمد: لغة الرواية، مجلة اتحاد كتاب الإنترنت، المغاربة، الأربعاء،٢٣- ٢- ٢٠١١.

– فرمان، غالب طعمة، عبد الرحمن منيف والإنسان العربي المقهور، مجلة الأدب البيروتية، عدد٦، ١٩٨٠.

– المهري، محمد المهري، الاختلاف والهوية، مجلة الالتحاق، العدد رقم ٢، ٢٠٠١.

– مؤسسة لجان العمل الصحي (مفهوم الهوية) الشبكة المعلوماتية .

– مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد٦.

– محمد حسن، عبد الله، حديث الصباح والمساء، مجلة إبداع، ع١٢، ديسمبر، ١٩٨٧.

– موقع المعاني (معنى الهوية) الشبكة المعلوماتية .

– ولعة، صالح، المثقف في روايات منيف، جريدة العرب اليوم، عدد٢٤٢٨.

الرسائل الجامعية

- ابن حمود، أحمد علي : البنية السردية والتوظيف التاريخي في رواية أرض السواد لعبد الرحمن منيف، دراسة عامة، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ٢٠١٠ – ٢٠١١.
- المحيسن، صخر علي : البنية السردية والدلالية في دراسة أرض السواد لعبد الرحمن منيف، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، ٢٠٠٥.
- الخروبي، غدير عثمان طه : المكان في رواية مدن الملح لعبد الرحمن منيف، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٣.
- قويدر، عيسى نوري علي : عبد الرحمن منيف روائيا، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٣.

Abstract Study

Abed Al-Rahman Muneef (1933 - 2004) is an Arab novelist known for his enlightenment work, facing the painful Arab reality. He described himself as a revolutionary poet, in the sense that he revolted on social, political and other situations.

Therefore, I found it useful to look at the dual earth and man at Abed Al-Rahmane Munif. The land or place that Abed Al-Rahman Munif wanted to offer us through a special view is a manifestation of its value and a manifestation formed by exploitation through its relations with a man who may be a demolition or construction worker in it.

The dualism here (earth and man) is closely intertwined, so the personalities of Abed Al-Rahman Munif played an important role in the change. It is also an important element in the construction of his novel. The place is shaped by personality, and the work of Abed Al-Rahman Munif begins

and ends.

To illustrate this, the letter came in a preface, three chapters and a conclusion as follows:

The introduction dealt with the definition of the novelist Abed Al-Rahman Munif, his life and his literary achievements, and a presentation of some of the studies that dealt with his work. The preface also dealt with the cultural, religious, political and social heritage and the impact of this on the formation of the literature of Abed Al-Rahman Munif.

The second chapter focuses on the subject of land, power, authority, or the status of the land. The second chapter deals with the subject of land, identity and its relation to man, past, present and future. The impact of this conflict on the ground.

The third chapter deals with the study of the artistic construction of the work of Abed Al-Rahman Munif by

talking about narration, characters, description, dialogue and language, which in its entirety formed the structure of the novel through a tightly knit fabric.